

زوينة

رواية

محمد جبريل

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

1--i93ih1dx --i;9i1K93u--i1Kÿ9 ----- io; 3-o i.ä-i 3n u-ih1 ä-o9 o vi -o1Kkz 1
غ-o s;غ ~K -i äzl-n\9ú ;u-i äzl-n\ 9ú (i
lii93ih1kaz 9 vi o1KkzB (عبر الانترنت أو
للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدجة أو اى
وسيلة أخرى) **غ-o 1 lih غz\01n(9 1Kغ9z**
ä-o9 o 0- 3 9-1K - a1Kÿ9 .ä-i 3n uih
.äi3lu1K üxz lai11 l a a3uli 9ú v19o11

إلى زينب العسال ..

رفيقة رحلتى المسقطية .. وما بعدها

بين يدي الرواية

د. ماهر شفيق فريد

هذه الرواية القصيرة - شأنها في ذلك شأن الخليج (٣٩٩١) - نموذج موجه من أدب الاغتراب .

الاجتراب هنا - أو حس الغربة - مزدوج : مكاني ، وروحي . فالراوى صحفى وروائى ، يترك خطيبته مها في القاهرة ، ويسافر إلى مسقط ، عاصمة سلطنة عمان ، ليصدر - بمجهوده الفردى تقريبيًا - جريدة تمولها شركة صحار للمقاولات في روى ، ويرمى كفيله الشيخ حمود النبهانى إلى أن يجعل من الجريدة نشاطًا تجاريًا إلى جانب الاستيراد والتصدير . والراوى يعكف - على أنحاء متقطعة - على تأليف رواية ، فهذه إذن (قارن " مزيفو النقود " لأندرية جيد) رواية عن روائى يحاول كتابة رواية . ويلمسات واثقة سريعة من فرشاته يرسم محمد جبريل صورة لا تنسى لجغرافية عمان وجوها وآثارها (أنظر أيضًا أعمال يوسف الشارونى إبداعيًا ونقديًا ، عن تجربته العمانية :) الحرارة الخائفة والرطوبة التى تأخذ بالأكظام ، الشمس

الحارقة ، المراوح التى لا تفعل شيئا- إلا توليد تيار ساخن من الهواء ، أجهزة التكيف التى صنعت الحياة فى منطقة الخليج (وهى - فى ذلك - تلعب دورا- أهم من دور البترول ، على حد قول إحدى شخصيات الرواية) . وهناك الجبال والطرق المتعرجة ، والفولكلور متشعب الجذائل ، والتحام الواقع بالأسطورة كما فى حادثة ناصر التميمي (وهو شاب عهد الشيخ حمود النهانى إلى الراوى بتدريبه على مهنة الصحافة) . إنه إذ يقود سيارته فى طريقه الجبلى إلى قريات تظهر له امرأة جنية تغويه ثم تختفى ، ويتشوش إدراكه ، ويدخل المستشفى . وقبل أن يتمكن الراوى من السفر إلى بهلا حيث شيخ ذو كرامات يقال إنه قادر على شفاء مثل هذه الحالات ، توافى ناصر منيته . ولأن الضد يظهر حسنه (أو قبحه) الضد ، فإن الراوى لا يفتأ يرتد بخياله من قسوة البداوة إلى دفء القاهرة ، إلى بيته المطل على ميدان المساحة بالدقى ، حيث كان يعيش مع أبويه وإخوته خالد وباسم وعفاف الصغيرة . وينسج مع خطيبته مها الواقعة تحت تأثير أمها شرنقة أحلام - لا يبدو أنه من المقدر لها أن تكتمل - بالزواج والاستقرار . والشركة التى

يملكها النبهانى ملتقى أجناس كثيرة ضربت فى مناكب الأرض سعيًا وراء الرزق ، وأنماط بشرية متباينة : هناك المهندس عدنان الطراونة الأردنى ، وثمة المدرس عبد العال الذى تخونه زوجته وتستميل أولاده إلى صفها . وتدور فى فلك الراوى - من خلال العمل والإقامة - شخصيات أخرى : خميس المناعى ، وهو ضابط من شرطة عمان السلطانية ، شوقى كمال ، بهجت حسان ، سليم الغافرى مدير العلاقات العامة بوزارة الإعلام الذى ينتقد عبد الناصر نقداً مرًا . ولكن الشخصية المحورية فى هذا السياق العمانى هى زوينة التى تحمل الرواية اسمها : زنجبارية تعارف بها الراوى فى مطار السيب ، مضيضة أرضية فى شركة طيران الخليج ، مخطوبة لابن عمها زاهر وعلاقتها به مضطربة اضطراب علاقة الراوى بخطيبته مها . يقع الراوى فى حب زوينة ، وتبادلته - كما هو واضح - مشاعره ، ولكنها لا تمنحه نفسها . والأغلب أنها ستتزوج من ابن عمها ، وإن كان شعورها نحوه فاترًا . والعلاقة بين هذين الروحين المعذبين - الراوى وزوينة - تصنع واحدة من أجمل قصص الحب فى أدبنا القصصى العربى الحديث ، وأغربها أيضًا . فيها

شئ من حب الراوى لسانتى فى رواية يوسف إدريس " البيضاء " ، وحب يوسف منصور لزوجة المايسترو فى رواية فتحى غانم " الساخن والبارد " ، وحب الراوى لفتاة تصغره فى السن كثيرًا فى رواية بهاء طاهر " الحب فى المنفى " . عدم التحقق هنا ليس نابعاً من ظروف خارجية - وإن كان كذلك ، إلى حد ما - قدر ما هو نابع من كف داخلى عنيد ، يقيم حاجزاً بين الرغبة والفعل . ويترك جبريل نهاية روايته مفتوحة : فثمة احتمال - مجرد احتمال - أن يعود الراوى إلى خطيبته مها فى القاهرة ويتزوجها ، ولا يلتقى بزويته - حبه الحقيقى - من بعد قط .

هذه إذن هى الغربة الروحية المساوقة للغربة المكانية : أرواح تلوب ولا تعرف راحة أو مستقرًا . وهناك توترات - ذات أبعاد سياسية واجتماعية وتاريخية - نابعة من الجدل بين قشرة حدائية ولب قروسطى . وجبريل فى هذا صنو لعبد الرحمن منيف وصنع الله إبراهيم وسليمان فياض ومحمد عبد السلام العمري وآخرين . فى أعمال هؤلاء الكتاب أعمق تشريح لدينا للثورة الحضارية التى ترتبت على انبثاق البترول - وكل ما يصاحبه من مظاهر الحدائة - فى تربة

ما زالت - بمعتقداتها ونظمها وموروثاتها وأفكارها وأنماط
حساسيتها - تعيش فى القرون الوسطى . ربما كانت مشكلة
العالم العربى - مثل مشكلة روسيا - أنه لم يعرف عصر
نهضة بالمعنى الأوروبى قط ، وأن نبضات ميلاده الأولى قد
أجهضت ووجدت فى مهدها .

رواية جبريل هذه جزء من عمله السابق وخروج عن
مساره فى أن . ثمة اتساق داخلى يصل بين كل أعماله :
رواية وقصة قصيرة ونقدًا- ومقالة . وثمة أيضًا- استكشاف
لآفاق جديدة مع كل كتاب جديد ، بصرف النظر عن نوعه
الأدبى . هذا كاتب لا يكرر نفسه قط ، وينبثق إنتاجه الغزير
- كنافورة أرضية ساخنة - من بعد غائر يخترق طبقات
الوعى إلى صخور القاع الرسوبية . لقد عايشته عمله
القصصى - منذ روايته الأولى " الأسوار " (٠٧٩١) حتى
أحدث عمل صادر له " حكايات الفصول الأربعة " (٤٠٠٢)
(، مرورًا بصرحه الشامخ " رباعية بحرى " (٧٩٩١ -
١٨٩١) - وأشهد أنى لم أجد تكرارًا فى عمله قط ، وإنما
كنت أشعر مع كل عمل جديد أنى بإزاء كاتب أفرؤه لأول
مرة . لأول مرة ، ولكنه - مع ذلك - قد خاطبنى من قبل :

خبرة سابقة ، ومشهد داخلى سبق للمرء رؤيته ، وإن لم يدر متى ولا أين ولا كيف .

ومن أقدر فصول الرواية على تحريك القارئ وصف زوينة للمحنة التى مر بها قومها منذ سنوات : حركات الزوج والسواحيليين التى كان همها التخلص من العنصر العربى بالقتل والضرب وإطلاق الرصاص والصرخات وإشعال النار لإخلاء زنجبار من الجنس العربى وإحلال الجنس الأفريقى مكانه ، وكيف أنه بعد أربعة أشهر من هذه الحوادث أعلن قيام الوحدة بين تنجانيقا وزنجبار ، وأصبح اسم الدولة الجديدة تانزانيا . وتثور عدة أسئلة فى ذهن القارئ : أكان عبد الناصر محقا- فى تأييده للجانب الإفريقى فى هذا الصراع ؟ ماذا كان دور الرئيس جوليوس نيريرى فى هذا كله ؟ أكان الأفارقة طلاب حرية ، يثورون على الغازى العربى ، أم كانوا دمي فى أيدى استعمارية غربية تحرك الخيوط من وراء ستار ؟ أسئلة صعبة لا تقدم الرواية إجابات عنها – متى كانت وظيفة الفن تقديم إجابات ؟ – وإنما تكتفى بإثارتها وتركها تتخايل – قلقة مقلقة – على حافة الوعى .

محمد جبريل - فى هذا العمل - صانع بارع يعرف كيف يطوع مفردات اللغة وتراكيبها للغوص على أعمق عذابات الروح ونشواتها وتقلب أطوارها . إنه فنان حقيقى موهوب (كما وصفه إدوار الخراط فى تقديمه لـ " حكايات الفصول الأربعة ") أوتى من رهافة الحس وشمول النظرة الجامعة بين البانورامى والمنمنم وبراعة التقنية ، ما يجعله صوتاً من أقوى الأصوات وأصفاها فى المشهد الروائى العربى اليوم .

ماهر شفيق فريد

نحن نعيش فى هذا العالم عندما نحبه
تاجور

تنبهت إلى اقتراب الطائرة من مسقط ، حين أضيئت اللوحة فى أعلى : " التدخين ممنوع .. أربط الحزام " . بدت _ من نافذة الطائرة _ أضواء الشوارع والدورات وشعلات البترول . أعددت نفسى للجو الخانق ، والرطوبة العالية ، والصهد اللافح . قال الشيخ حمود النبهانى : أنت تستطيع دخول البلد بأية كمية من النقود أو الذهب أو البضائع ، لكنك لا تستطيع أن تدخل بالخمير ولا المخدرات ولا الأفكار المتقدمة . إذا علم الضابط على حقيبتك بالطباشيرة ، فإن من حقك مغادرة المطار إلى داخل المدينة ..

علا السلم الآلى فى اقترابه من الطائرة . ثم انفتح الباب.

كنت قد أنهيت إعداد حقيبتى ، لكننى ظللت داخل الحجرة ، أتردد فى الخروج إلى الصالة ، ومواجهة الحديث مع أمى ..

أضافت أمى إلى ندائها وصخب أخوتى نقرات بإصبعها
على الباب :

— نمت ؟ ..

— أبداً .. أعد الحقيبة !

— سفرك لإعارة وليس للهجرة ..

وسرت فى صوتها ارتعاشة واضحة :

— خذ ما تحتاجه بالفعل !..

انخرطت عفاف الصغيرة فى بكاء مفاجئ . بكت
بانفعال كما لم أرها من قبل . قالت من بين شهيقها
ودموعها:

— لا تسافر !..

اغتصبت ابتسامة صامتة ، ونظرت إليها ، فزاد
بكاؤها. علا نسيجها ، وضربت الأرض بقدميها . كان أخوتى
يرقبون المشهد فى هدوء منفعل ، انعكست تأثيراته فى
ارتعاشات الأعين والشفاه . ظلت أمى على جمودها
وصمتها . بدت بلا حيلة ، فهى تكتفى بنظرات موزعة لا
تثبت على شئ . لم تنطق شفتاها بكلمات وداع ، ولا بكلمات

واضحة أو مدغمة ، وإن لاحظت التماع الدمع فى عينيها ،
وتشاغل أبى بالتطلع إلى ما لم أتبينه عبر النافذة ..

نسيت – فى ارتباكى – ربط الحزام ، فنبهتنى
المضيئة ذات السحنة الأوروبية . أذكر كل ما حدث ليلة
السفر ، لكننى ظللت لا أصدق أنها مضت . لا أذكر كيف
انتهت اللحظات القاسية . كدت أفقد سيطرتى على نفسى .
لاحظ أبى ، فخشى – ربما – أن أعدل عن السفر ..
قال :

– للطائرة موعد .. ولن تنتظرك !

كيف استطعت تحمل ما حدث؟! ..

توقفت العجلات ، وفتحت الأبواب . غرقت فى بحر
من العرق اللزج . أوسعت خطواتى ، وأنا أمضى من سلم
الطائرة إلى صالة الاستقبال ، على كنفى حقيبة جلدية سوداء
صغيرة ، ويطل من جيب الجاكت العلوى جواز السفر
وتذكرة الطائرة وبطاقة التطعيم الصفراء ..

بعد أن وقفت فى طابور من لابسى الدشداشة ، نيهنى
الواقف ورائى :

- هذا الكاونتر للمواطنين ..

وأشار إلى طابور آخر من لابسى البدلة والجلباب :

- طابورك هناك ..

عاودنى الإحساس بأنى لم أعد فى القاهرة ، وأنى
ابتعدت عنها إلى مدينة أخرى ، بلد آخر ، يستقبلنى ضيفاً ،
وافداً ، موظفاً عند كفيل ..

لاحظت حيرتى :

- ألم تحصل على حقائبك ؟

وأنا أومئ برأسى :

- حقيبة واحدة .. هاهى ..

- لماذا تقف هكذا إذن ؟ ..

- أنتظر سيارة العمل ..

- هل تعرفها ؟ ..

- يأتى بها صديق يعرفنى ..

- أين تعمل ؟ ..

بدا السؤال مفاجئاً ، ومربكاً :

- شركة صحار للمقاولات ..

استدركت وأنا أبحث عن بطاقة الشركة :

— أنا صحفى .. سأصدر جريدة تمويلها الشركة ..

— فى روى ؟ ..

أخرجت البطاقة من جيب الجاكت . أعدت قراءتها :

— نعم .. هى فى روى ..

— عربة الشركة فى طريقها إلى هناك .. تعال معنا ..

فاجأنى التصرف . فتاة تحدثنى ، وتدعونى إلى ركوب

سيارة ، بمفردها أو مع آخرين . كنت قد قدمت بتصوير

مجتمع الرجال والخناجر والدشاديش والجمال والقلاع

والعادات القديمة والتقاليد ..

تأملت قامتها الضئيلة ، المتناسقة ، وملامحها المنمنمة

، والبسمة التى كأنها ألصقتها بشفتيها ..

كانت ترتدى زى المضيفات ، ووضعت على صدرها

شارة طيران الخليج :

— مضيضة ؟ ..

- عملى فى العلاقات العامة ..

مضت ناحية السيارة ، ربما لتجاوز ترددى ..
أسلمت عيني للمدينة التي أراها للمرة الأولى : الجبال
، والخلاء ، والمباني القليلة المتناثرة ، وجو إبريل الأقرب
للحرارة ، والسماء الخالية من السحب ..
داخلى إحساس أنى تركت تاريخى فى القاهرة . أبدأ
فى هذا المكان تاريخًا جديدًا . خلفت أبى وأمى وأخوتى
وأصدقائى وزملاء العمل والذكريات الصغيرة ..
كيف أجد طرف الخيط فى حياتى الجديدة ؟ ..

فيما عدا الجريدة الحكومية ، فإن بقية الصحف كانت تعرف المحرر الواحد . يقيم فى مبنى الجريدة . يعد موادها ، يرسلها ، أو يحملها إلى بيروت أو الكويت لتطبع هناك .
بدا المبنى - فى ضوء ذلك - لا بأس به ..

قال الشيخ النبهانى :

— لم يمض ثلاثة أيام على وصولك إلى مسقط .. من ذلك على هذا البيت ..

— مضيعة فى طيران الخليج .. أوصلتني فى سيارة الشركة إلى روى ..

لما وضع أصابعه خلف أذنه ، واستعاد كلماتي ، خمنت أنه لا يسمع جيدا . أعدت ما قلت بصوت مرتفع ..

قال :

— دون سابق معرفة ؟ ..

— دون سابق معرفة ..

ثم وأنا أتحسس الكلمات :
_ أشفقت على حيرتى .. فصحبتنى فى سيارة الشركة
.. حين كلمتها عن عملى ، نصحت بالمبنى ، وأعطتنى رقم
التليفون ..

رمقنى بنظرة متسائلة :
_ قالت لك إنها عمانية ؟ مسقطية ؟
وأردف لإيماءة رأسى :
_ لعلها زنجبارية .. عرف التحرر عن الزنجباريات
..

هششت بظاهر كفى ذبابة ألح طنينها حول رأسى ،
وقلت لأجاوز الارتباك :
_ هذا كل شئ ..
قال وهو يمضى إلى خارج البيت :
_ إذا أردت سيارة لأى شئ .. اتصل بالتليفون أبعث
لك السيارة مع السائق !

السفر عالم يصعب تخمين ملامحه . عندما بدأت فى
إعداد حقيبتى ، تصورت نفسى فى شقة مثل شقتى المطلة
على ميدان المساحة . قال لى الشيخ النبهانى إن غالبية بيوت

مسقط على النسق العماني ، فتشوش تصورى . استدعى ما لم يهبه شكلا -محدد-ا ..

خاب ظنى فى شركة صحار للمقاولات ، مثلما خاب ظنى فى الجريدة . فى الشركة – مثلما فى الجريدة – موظف واحد ، هو المقابل لى . شاب أردنى فى حوالى الثلاثين . قدم نفسه : المهندس عدنان الطراونة . تبادلنا كلمات مجاملة ، ثم اجتذبتنى دوامة العمل فى الجريدة ، فلا نلتقى – إلا مصادفة – فى سوق روى ، يبادلنى التحية بهزة من رأسه ، ويمضى ..

كان الشيخ النبهانى يقترب من الستين . يرتدى الدشداشة الفضفاضة ، والكمة المزركشة الضيقة ، يبدو من تحتها تداخل السواد بالبياض فى رأسه . وربما وضع البشت ، ذا الأطراف المذهبة فوق الدشداشة ، قماش أسود ، خفيف ، أقرب إلى الشاش ، تبين الدشداشة من تحته . يحرص – مثل كل العمانيين – على الخنجر الفضى فى حزام من خيوط الفضة حول الخصر ، و " الفريخة " المدلاة أعلى الدشداشة من جانب العنق ، يضمخها بالعطور والطيب ، ويتشممها بين فترة وأخرى . وفى يده – معظم الأوقات –

مسواك يجرى به على أسنانه . إذا أسدل " البشت " على
الدشداشة ، خمنت أنه فى طريقه إلى مقابلة مسئول ..
كان على الفطرة فى كلماته وتصرفاته . تنطق شفتاه
بما يبدو أنه أراد قوله بالفعل ، لا يضيف ولا يحذف ، ولا
يلجأ إلى التزويق . يتذكر أياماً ، لم تكن مسقط تعرف فيها
الكهرباء ، ولا الطائرات ، ولا الإذاعة أو التليفزيون . لا
شئ ، إلا الصحو على أذان الفجر ، والعمل داخل أسوار
المدينة وخارجها ، ثم العودة على دقائق النوبة بقلعة الميرانى
..

لم يكن لديه أفكار مسبقة ، وتزاورج فى مشاعره طيبة
واضحة وطابع مادى ، يتبدى إذا تحدثت فى الأمور المادية ،
فعيناه يغشاهما حول حقيقى ، تتنافر حدقتنا العينين ، ويغلب
البياض ، ويعروه ارتباك واضح ..

عدت إلى الرواية التى كنت بدأت كتابتها فى القاهرة .
الصفحات قليلة ، والشخصيات تعانى الشحوب ، والأحداث
تختلط بلا انسجام ..

مسقط حلم سخييف . سجن أسواره جبال ، جبال
صخرية ، مصممة . ليس ثمة ما تبدأ منه ، أو تنتهى إليه .
تمتص أشعة الشمس ، أشعة أنثوية ، خصبة ، تعكسها على
الحياة - بكل صورها - فيرين همود هو أقرب إلى الموت
. وتغيب الشمس ، فتنفث الجبال مخزونها الصهدى فى
تواصل قاس ، مؤلم . قال لى الشيخ النبهانى : تسمية مسقط
لأنها تسقط بين الجبال . أشعر أنى واحد من الذين سقطوا
بين جبال مسقط ..

المبنى مستقل فى حضن الجبل . على النظام العمانى .
ساحة ترابية ، واسعة ، مكشوفة ، يحيط بها سور مرتفع من
الحجر الأبيض . باب الواجهة يطل على شارع الحمراء ،
دائماً مغلق . أسندت عليه ألواح من الخشب وصناديق
وأجولة فارغة . يقابله اتصال حلقات الجبال ، يعلوها أكواخ
من الصفيح ، ورجال اكتفوا بارتداء الوزار ، وماعز أتجير
لوقفها على أظلافها فوق الصخور ..

الباب الجانبى يطل على بيت مماثل ، عرفت أن الفتاة
تسكن فيه . البيتان فى حضن الجبل . جبل صخرى مرتفع ،
تفصل بينهما طريق قصيرة ، تغطت أرضية صخورها

بذرات متراكمة من الرمال . كأنه زقاق خلا إلا من السكان ، أسرتها - لاحظت طفلًا صغيرًا دائم اللعب فى الساحة الداخلية لبيتها ، وأب فى حوالى الخامسة والستين ، أما الأم فقد التفت بعباءة ، غابت فيها ملامحها ..

أعود من جولات سريعة فى وزارة الإعلام بالقرم ، أو الوزارات الباقية فى مسقط القديمة . أدخل من الباب الجانبى . أدس المفتاح . أدفع الباب . تطالعنى الوحدة فى البيت المستلقى فى حضن الجبل . الساحة الترايبية . على الشمال ، الباب الرئيسى المغلق ، وعلى اليسار حجرتان منفصلتان ، يعلو بهما عن الساحة الرملية رصيف من البلاط المتداخل . جعلت الأولى مكتبًا ، والثانية - الأقرب إلى المطبخ والحمام - للنوم . يعتقدون أن الجان تسكن دورات المياه ، فهى لا بد أن تكون بعيدة عن حجرات النوم ..

الشمس تنعكس حرارة قاسية فى الأرض والجدران والأشياء الساكنة والمتحركة ، وفى الرائحة الخانقة ، المتصاعدة فى الجو . رائحة غريبة ، تذكرك بالموت . وتطل النافذة على الساحة الترايبية ، والأسوار التى تحيط بها ، كأنها سجن حقيقى ، معزول عن العالم الخارجى . دنيا

بعيدة ، جزيرة معزولة ، لا صلة لها بأفاق المياه المترامية
من حولها ..

تبيئت أن القاهرة قد ازدادت بعداً . إنها هناك ، حيث لا
أستطيع أن أصل إليها إلاّ بالتخييل . الغربية من حولى قاسية .
حتى الهواء ، بدا لى غير الهواء الذى كنت أتنفسه فى
القاهرة . يختلف فى حرارته الساكنة ، عن الهواء الذى ألفتة
. كنت أضغط على زر المروحة فى مكتبى بالجريدة ،
فتحرك الهواء لطيفاً ، لكن المروحة _ فى خلاء الجبال _
فاجأتنى بهواء ساخن ، ثقيل ، والتنفس أمارسه بصعوبة ..

فى اليوم الأول ، دارت المروحة بالهواء الساخن ،
الساكن ، تخللته رطوبة ثقيلة ، خانقة .. أوقفها . أفتح النافذة
فى القاهرة ، فتحمل نسائم تلطف سخونة الجو . المروحة
الدائرة من فوقى تلمنى بسخونة حارقة . بدا لى احتمال
الحر الساكن أيسر من تلقى الهواء النارى بدوران المروحة .
فتحت الباب ، فالتف جسمى بالعرق والرطوبة اللزجة ،
وأحسست باختناق ..

الشمس الالهية تفرض سطوتها على النهار ، تحيل كل
شئ إلى وعاء خرافى يشوى من فيه بلسع النار . الحرارة لا

ترتطم بسطح الأرض فقط . تتسلل إلى الباطن ، تقتحمه ، تدفع الكائنات التحتية للخروج إلى السطح ، ربما تبحث عن مكان لم تبلغه حرارة الشمس ..

الشمس هى العطش والجفاف والتشقق ، وهى الملل ، والتكاسل ، والنوم ، وبطء الحركة . حتى الكلمات تخرج من الأفواه متثائية . يشغلنى _ إذا وقفت تحت الدش _ أن ينزل الماء ساخناً لتسلط حرارة الشمس على " التتكر " ، أو أن ينفذ الماء قبل أن أنهى الاستحمام ..

هذه أول مرة أحيأ فيها بمفردى . ليس أمامى ولا حولى ما أتطلع إليه . الأبواب _ حتى أبواب الدكاكين _ مغلقة ، أو موارد ، والحياة يرين عليها بلادة . لا شئ إلا الصمت ، والشمس ، والصخور ، والبيوت ذات الطراز العمانى ، الساكنة ..

اعتدت الانفراد والوحدة . أشعر بأنى منفصل عن كل ما حولى ، عن هذا المكان بجباله وحرارته اللافتة وحشراتهِ التى بلا عدد ودشاديشه . لم يعد للناس ولا الشوارع والبيوت ملامح محددة . تداخلت الملامح ، وتشابكت . ثمة مسافة تفصل بينى وبين كل من ألتقى بهم . لا أرضية مشتركة نقف

فوقها ، لا صلة لى حتى بالمصادر التى ألجأ إليها فى تغطية موضوعات الجريدة . تنتهى صلتى بها عندما أغانر الوزارة أو المؤسسة . لا أتذكر المسئول إلا إذا دفعنى العمل للعودة إليه .. تثقل على الوحدة ، فأتشاغل بالقراءة . أحاول التركيز بإعادة القراءة . أدير مؤشر الراديو إلى آخره . ربما يقضى فقدان التركيز على الصخب فى داخلى . ثم أدرك أن النوم هو أفضل الوسائل للتغلب على ما أعانيه ..

صدمتني البداية : الألقاب التى تسبق الأسماء : حضرة سمو السيد .. حضرة صاحب السمو .. معالى .. سعادة .. حتى الأسماء كنت أعانى تهجيتها . واستقر فى داخلى رقيب يدرك ما ينبغى - وما لا ينبغى - نشره ..

قدوم الليل ألغى تصورى بأن الجو سيكون ألطف . الكتل الصخرية تمتص أشعة الشمس ، أشعة أنثوية ، خصبة ، تعكسها على الأبدان والعقول ، فيرين على الحياة - بكل صورها - همود ، هو أقرب إلى الموت . تغيب الشمس ، فتنتفج الجبال مخزونها الصهدى فى تواصل قاس ، مؤلم . المروحة الكهربائية ذات الطنين الرتيب تحرك هواء ساخنا . وثمة أسراب الحشرات الطائرة : البعوض وهوام الليل تحوم

حول الدائرة المتوهجة للعبة الوحيدة المتدلية من السقف ،
أصوات كاللسع ، أو بلا صوت ، حول ضوء اللعبة .
تحولت الحجرة إلى سحببات صغيرة من الحشرات ، أنواع
أعرفها ولا أعرفها ، سوداء وبيضاء وملونة ، تشاغل عيني
، وتطن حول أذني ، وتعلو . ترتطم باللمبة ، وتسقط فى أى
مكان ، تموت ، أو تتسلق الجدار لتحوم من جديد . وكنت
أعانى قرص حشرات لا أراها ..

السائق هندی . فى حوالى الثلاثين . يرتدى فائلة
بيضاء ، وإن حال لونها بالاتساخ ، ووزار من المكعبات
الملونة ، ويدس قدميه فى ششب بلاستيك . يتكلم العربية
بصعوبة . اكنفيت بأن أذكر له أسماء الأماكن ، وهو يهز
رأسه بما يعنى أنه فهم ما أعنيه . كان دائم المضع لما لم
أتبينه . يحيط أسنانه وشفثيه باللون الأحمر ، ويصق لعاباً
أحمر . قال لى إن " البيتل " هو ما يمضغه . عادة هندية
غابت عنه أسبابها ..

مرة وحيدة ، غابت فيها السكينة عن ملامحه . كانت
الساعة تومض فى يده بين فترة وأخرى . أبدت ملاحظتى ،
فغمغم بما لم أتبينه ، وسكت ..

أعدت الملاحظة ..

قال :

— إنها صورة الإله .. تظهر كل ساعة ..
بدا هادئاً وجاداً . لم تجاوز العلاقة بينى وبينه أنى
أركب السيارة ، وأنه يقودها ..
— ماذا تقصد؟! ..

— صورة الإله تتوسط الساعة ، وهى تظهر لأتذكر
واجب العبادة ..

ومال بأعلى كتفه :

— الإله يحيا الآن فى الولايات المتحدة ، وإن انتشر
المؤمنون به فى الهند وخارجها .. إنهم يتذكرونه برؤية
صورته فلا يرتكبون الخطيئة ..

— وهل تنسون الإله إذا لم تظهر صورة الساعة ؟

— سير ! ..

اكتفى بالكلمة الإنجليزية ، غاضبة ، متوترة . اهتزت
يده على المقود ، وبدا عليه انفعال ، وزاد من سرعة السيارة

..

حاولت أن أصادق المدينة ..

مشيت - بلا هدف - فى شوارع روى ومطرح . بعد أن تعلقو شمس الغروب أسطح البنايات . الحياة تنعدم تمامًا فى الفترة من الظهر إلى العصر . لا أحد يستطيع السير على قدميه ، تحت الشمس الحارقة . خليط من الأجناس واللغات والأزياء والسحن ، واللافتات المكتوبة بالعربية والإنجليزية والأردية . الدشداشة تختلف عن التى يرتديها أبناء الخليج . الياقة وفتحة الصدر والإطار المذهب الذى يحيط بالعنق ، بالأكمام والشراشيب البيضاء ، والملونة أحيانًا . يشم صاحبها ما نثر عليها من عطر . المسرة غطاء الرأس لموظفى الحكومة ، الكمة للتجار ، وللحياة فى البيوت . تدس القدمان فى " نعال " من الجلد أو البلاستيك . التمنطق بالخنجر ضرورة للمناسبات الرسمية ، يكتمل بالعصا الخيزران ، تطوح بها اليد ، أو توضع تحت الكتف . أتعرف على القادمين من زنجبار بما يرتدونه : البنطلون والقميص بدلا من الدشداشة ، والتحرر من غطاء الرأس ، والنساء يرتدين الملابس الفضفاضة ، أو المبهجة المزركشة . ثمة السارى الهندى والبطن العارية والنقطة الحمراء فوق الجبهة والقلنسوة الهندية ورائحة الزيت الملتصقة بأجساد الرجال ،

وشعور الشيخ الطويلة ، المضفرة حول الوجه وتحت العمام
الكبيرة ، والسودانيون بجلابيبهم البيضاء الفضفاضة والعمام
البيضاء ، ولايسو البنطلونات والقمصان ، وربما تحول
المارة إلى خيالات ، فتغيب ملامحهم . أكلت أطعمة لم أكن
تذوقتها من قبل ، أو بصقت اللقمة الأولى . أجدت التفرقة
بين أنواع الخبز ما بين شامى وإيرانى وباكستانى . تختلف
فى أحجامها وطعمها ، وحتى فى رائحتها . عانيت _ فى
البداية _ فهم المفردات التى تتداخل فى أحاديث العمانيين ،
مفردات آسيوية ، لعلها من الهند أو الباكستان أو بلاد أخرى
: سيدا .. تيكا .. تيكا نيه .. متروس .. أتشا .. رفيق ..
سولفة .. صدمتنى المفردات ، ثم فهمتها فى السياق ، ثم
تفهمت معانيها ، واستخدمتها باعتبارها مفردات طريفة ، ثم
لجأت إليها كضرورة لتوضيح ما أقول ..

مسقط !..

سألت عن التسمية ..

قال لى الشيخ النبهانى :

_ الجبال تحيط بالمدينة من الشمال والجنوب والغرب
. ولأنها مدينة ساحلية ، فإن الجبال تمتد إلى داخل البحر

أيضاً على شكل فكين صغيرين ، جدد عليهما البرتغاليون
قلعتى الميرانى والجلالى ..

لست أذكر القائل بأن مسقط أشبه بجزيرة من الجبال ،
لكن الجبال - بالفعل - مظهر رئيسى للجغرافية العمانية .
التقى بها أينما سرت ، على اليمين ، وعلى اليسار ، وأمامى ،
وورائى . كتبت فى رسالة لأبى : أخشى أن أنظر إلى فوق
فتطالغنى الجبال !.. ربما - لكثرتها - أتت الأسطورة بأن
سليمان الحكيم كان يحبس الجان فى الوديان الواقعة بين
الجبال . نحت العمانيون صخور الجبال فى بعض الأماكن ،
ليشقوا الطرق ، وبشيدوا المباني . لم ينظروا إليها من
الزاوية نفسها التى ينظر بها الغرباء ..

سألت الولد القادم من صلالة - لم أكن زرتها بعد - :

- هل لديكم جبال مثل جبال مسقط ؟

هتف مستنكراً :

- جبالنا أضخم بكثير !..

يرى الجبال مبعثاً للقوة والاعتزاز .

لم أكره المدينة ، ولم أحبها ، وإن ألفت هز الرأس ،
وكلمة " ما قصر " تقال فى المجاملة ، وكلمة " نو برلم " فى

المواقف السهلة والصعبة ، و " فى أمان الله " عند انصرافى
من أى مكان .. والدقون الطويلة تحيط بالوجوه ، و " الله صابر
" تغطى الرءوس . تمنيت لو أنى لم ألتق بناصف الغمرى ،
ولم أقبل عرضه بالسفر إلى هنا ، ولم أسافر ..
لم أكن ألبى الدعوات من أى نوع . العمل يمتص وقتى
تمامًا ، لا يبقى فى نهاية اليوم إلا أن أذهب - مرهقًا - إلى
النوم . السرير المرتفع بملاءته الزرقاء المتسخة ، ووسادته
التي حفر رأسى موضعًا فيها . أكتفى - لساعات - بالتمدد
، أبعاد بين قدمي . أغمض عيني ، أو أحرق فى سقف
الحجرة ، أو فى سماع الراديو ، أو أخلو إلى القراءة .
أغيب فى الصفحات . أنسى العالم كله . وإن ناوشنى حين
إلى شئ غامض ، لا أدرك طبيعته . تومض وجوه تحيا فى
ذاكرتى ، أو تختفى . أضم الوحدة بين ذراعي ، وتغيب
الأحلام - بالتعب - عن نومى العميق ..
هل أظل فى رحلة السفر حتى أوفّر ثمن الشقة ، أو
أمدّها - إن استطعت - حتى أدخر لأعوام الزواج ؟..
أزمعت أن أقلل من رسائلنى إلى القاهرة ، ومن
مكالمات التليفون ، فأعتاد الغربة .

اقتحم النافذة المفتوحة صرصار جبلى طائر . التصق
بالجدار لثوان ، ثم تخبط فى طيرانه نحو السقف والأركان .
غالبت الخوف وأنا أتبع حركة الصرصار السريعة ،
المتقافزة . واصل الصرصار اندفاعه إلى خارج الحجرة ،
فأغلقت النافذة ..

اعتدت البقاء وراء النافذة المطلة على الجبال والبيوت
والشوارع الساكنة . أحرص ، فتظل النافذة مغلقة ، حتى لا
تدخل الحشرات وهوام الليل . أكره سلاسل الجبال الصخرية
، المتلاصقة ، الجرداء ، الصامتة ، وأخافها . يتوالى
ارتفاعها وانخفاضها فى كل الاتجاهات إلى غير نهاية . تبدو
جدرانًا هائلة . أتخيل سقوطها المفاجئ . يحزننى المشهد
الواحد للماعز الواقفة فى أعلى ، لا أعرف كيف أفلحت فى
الصعود بأظلافها ، ولا من أين تأكل . أهدق فى ظلمة الليل
، أو سكون النهار ، وأنتقل بين جزر منفصلة . أحيى فى هذا

البيت الواسع ، فى هذه المدينة الجبلية . لا صديق ، آخذ منه
وأعطى له ، أحكى ما يفد إلى ذهنى . لا أخفى أى شئ .
بدت أيامى فارغة ، وغير محتملة ، وأيامى القادمة بلا
ملامح ، أو أن ملامحها شائهة . نزعت صورة لميدان
الحسين ، كنت علقتها على الجدار . كنت أختنق – حين
أنظر إليها – من الوحدة والعزلة . تضيق المسافة بين
السقف والجدران ، ثم تستطيل . يهبط السقف ، وتضيق
الجدران ، تقترب ، تلامسنى ، تنطبق على ٱ ..

لم يكن حلم الثراء هو دافعى للسفر . وربما لو أنى
كنت قد عثرت على شقة ، وأفلحت فى تأثيثها ، ما أعطيت
انتباهى لقول ناصف الغمرى :

– ألم تفكر فى السفر ؟ ..

– إلى أين ؟ ..

– إلى الخارج طبعاً ..

وفاجأنى بالقول :

– تريد عقد عمل ؟ ..

قلت :

– أين ؟ ..

— سلطنة عمان ..

استعدت الاسم :

— سلطنة عمان ؟ ..

كانت الصورة غامضة أو ضبابية ..

حدثنى عن الأعوام الأربعة التى أمضاها فى السلطنة :

الجبال المتلاصقة ، تبدو البنايات والشوارع بينها بقعاً متناثرة

فى نسيج جبلى ، ممتد ومتكامل . أحياء مسقط هى كل قطعة

أرض أتيح للناس أن يشيدوا فوقها المباني والمنشآت . الجبال

صامتة ، صخرية ، جرداء ، يغيب عنها ذلك " الكليشيه "

المتداول : سلسلة من الجبال . تأتى من اللابداية ، تنتهى فى

اللانهاية . تثبث فى النفس شعوراً أقرب إلى الرهبة ، ذلك

الشعور الذى يملك المرء وهو يواجه المجهول ..

استطرد وهو يعدل من وضع النظارة فوق أنفه :

- نحت العمانيون الجبال ، اقتطعوا الأرض بالمعاول

والبلدوزورات والجرافات ، أنشأوا مدينة من بضع قرى ،

تناثرت فى السهول الصغيرة ، بين المنات من القمم

الصخرية المتلاصقة ..

وسرى فى صوته انفعال :

— تقبل السياسة العمانية أو ترفضها ، لكن ظاهرة صنع الحياة فى الجبل ، تذكرنى باقتطاع هولندا للأرض من مساحة البحر ، وإن بدا ما صنعه الهولنديون اجتهادا- بالقياس إلى اقتطاع الأرض من الكتل الصخرية ..

قلت :

— أنا صحفى .. ما شأنى باقتطاع مساحة أرض من صخور الجبل؟..

قال :

— ليست مسقط جبالا- وصخورا- فقط . هناك بشر طبيون وأسواق وشوارع ووسائل إعلام ودور سينما وبضائع من أحدث ما تنتجه أوروبا .. وأطلق ضحكة من أنفه :

— وهناك راتب يعينك على مجاوزة أزمك المادية .. كان الشاب — فى الرواية التى بدأت فى كتابتها — قد استجمع شجاعته ، وصارح فتاته بحبه لها . استعصت الكلمات بعد ذلك ، فدسست الأوراق فى درج المكتب .. هز إصبعه :

— لا تقل لا .. أعرف ما تحاول إخفاءه من أحوالك ..

بدا السفر هو الروشتة الوحيدة التى تكفل علاج مشكلاتى ، وإن تمنيت لو بقيت فى القاهرة . أقنع براتب الجريدة . أتزوج أو لا أتزوج . أحيا مع أبوى وخالد وباسم وعفاف الصغيرة فى البيت المطل على ميدان المساحة ، وعلى النيل والشيراتون وتقاطعات الشوارع المزدهمة . أتم الرواية التى بدأت فى كتابتها . أجدد اشتراك مكتبة معهد جوتة . أناقش أبى فى أخبار التلفزيون . أذاكر لباسم دروس الثانوية العامة . أعود إلى اختياري الصباحى بالسير إلى مبنى الجريدة ..

رفعت مها عينا- متسائلة :

— لماذا تسافر؟ ..

— لكى نتزوج ..

— هل السفر هو ما يجب أن يفعله كل المقدمين على

الزواج ؟

وداخلت صوتها ارتعاشة عصبية :

— أنت تعمل فى وظيفة جيدة .. وأنا أعمل أيضا ..

وأنا أعانى إحساسًا بالمحاصرة :

— ما نتقاضاه ننفقه قبل أن يحل الشهر الجديد ..

واصطنعت ابتسامة متوددة :

- تأثيث البيت يحتاج إلى ميزانية لا نملكها !..
حاولت أن أفعل شيئًا لأقترب من مها . أصبح الخطيب
- فالزوج - الذى تريده . لكن نظراتها المتسللة إلى حيث
تجلس أمها ، جعلت من الإحباط هو الثمرة الوحيدة ،
المتاحة..

بدت الطريق مسدودة ، ولم يعد بوسعى التراجع ..
أدركت أن الحياة بين هذه الجبال مما يصعب على
قبوله ولا أطيعه . بدت لى القاهرة بعيدة ، بعيدة ، أول الدنيا
، أو آخرها . كتبت رسالة إلى أمى . تحدثت عن شوقى إليها
. قلت إنى لن أستطيع أن أحيا فى هذا المكان بمفردى .
أعدت قراءة العبارة ، فشطبتها . كتبت كلمات أخرى لا
تطرح أسئلة ولا تخوفات ..

كان الجميع قد استقبلوا قرار السفر بالصمت .
المناقشات ومحاولات الإقناع بلا معنى ، أمام الحائط
المسدود . حتى المبلغ الذى كان يضيفه أبى إلى راتبى ، أول
كل شهر . همس - بعد خروجه إلى المعاش - أنه يجب ألا
أتوقع غير راتب الجريدة ، واغتصب ابتسامة :

— معاشنا نحن الأربعة أقل من راتبك فى الجريدة ! ..
بيدو السؤال بلا إجابة : كيف كانت الحياة هنا بلا
مكيفات ؟ كيف كان الناس يعيشون داخل البيوت ،
ويمارسون أعمالهم ، ويقصرون مواصلاتهم على الدواب ؟ ..
حدست أن الشعور بالاطمئنان سيظل حلما بعيدا ، أملا
ورديا ، إن ظلت وحدى فى هذه المدينة القاسية ..

لن أستطيع الحياة بمفردى . فى بالى مها ، ومحررو
الجريدة ، والدمعة الملتمة فى عين أمى إن تذكرت ما يثير
الشجن ، وبائع الصحف فى ناصية ميدان الدقى ، ونداء بائع
الفول يتصاعد إلى النافذة كل صباح ، وصياح الأولاد لاعبى
الكرة فى الشارع الخلفى ، وموقف الأتوبيسات فى ميدان
رمسيس .. مشاهد تبقى فى الذهن لحظات ، أو تومض
لتتلاشى ..

لو قدمت مها معى ، هل كانت حياتى تصبح أكثر
يسرا؟

تنهت على صرير الباب الخارجى . ترامى وقع
الأقدام على الأرض الرملية المتداخلة بالحصوات
الصغيرة..

بدا فى حوالى الخامسة والعشرين . له قبول احتوانى
منذ اللحظة الأولى . قامه طويلة أميل إلى النحافة ، وبشرة
سمراء أقرب إلى السواد ، ووجه طويل ، نحيل ، وحاجبان
كثيفان ، وعينان واسعتان ، بريئتان ، كعيني طفل ، وأنف
مستقيم ، وشفتان تنفرجان عن أسنان لامعة ، وشارب رفيع
تهدل طرفاه على جانبى فمه ، وذقن حليقة ، وإن أهمل فى
نهايتها خصلة شعر صغيرة . يرتدى جاكيت من التويد
الرمادى فوق دشداشة رائقة البياض ، وفى يده عصا قصيرة
، سوداء ، ربط نهايتها بمعصمه بحزام جلدى ..
— خميس المناعى .. ضابط من شرطة عمان
السلطانية ..

اللهجة ودود طيبة . لكثرة ما استمعت عن الرقابة والمراقبة والتنصت والملاحقة والاعتقال بالشبهات ، تحددت صورة رجال الشرطة فى إطار لا تجاوزه . أجسامهم الضئيلة ، وأصواتهم الهامسة ، وتأديهم المتكلف ، ترجح عليها لغة الإشارات والملاحظات والتحذيرات ، وحكايات سجن الرسيل التى تفوق ما كانت عليه الحياة فى سجن الجلالى . قال لى مستشار السفارة المصرية بهجت حسان : أنت ترى السجن من بعيد فتحسبه قصرا- فحما- ، لكنه - فى الداخل - ينتمى إلى أبشع سجون العصور الوسطى .. أقل أنواع التعذيب أن السجن لا يفتح فمه منذ يدخله حتى يتركه ..!

لم أرحب بالزائر ، وإن حرصت أن تعكس ملامحى ترحيباً لا أبطنه ..

دفع لى بورقة مكتوب عليها بالآلة الكاتبة :

— خبر نريد نشره ..

تأملت الورقة :

— هذا إعلان وليس خبرا- ..

— ما الفرق ؟ ..

- الإعلان مدفوع الأجر ..

هز رأسه دلالة الرفض :

- لا سلطة لى بذلك ..

- إذن سأنشره كخبر .. وإن كنت سأبدل صياغته

قليلاً..

- المهم ألاّ يتبدل المعنى ..

وتوتر صوته بانفعال صادق :

- العمال المتسللون بلا أوراق .. مشكلة .. نخشى أن

تستفحل ..

أشار السائق الهنـدى وهو يميل بالسيارة إلى طريق

السلطان قابوس . ألفت استطلاته ، وتفرعه إلى أحياء

وشوارع جانبية ، وامتداده إلى المطار ، أو - من الناحية

المقابلة - إلى مسقط القديمة ..

- أنظر !..

كانت سيارة الشرطة قد اتجهت بمؤخرتها ناحية باب

الخروج فى سينما عمان بلازا . شكل جنود الشرطة حاجزاً

فى المسافة بين السيارة والباب ، وراحوا يدفعون الخارجين

إلى داخل السيارة ..

كنت أراها وأنا أمضى إلى البيت عبر الحارة الترابية
القصيرة ، الضيقة ..
_ كيف حالك ؟ ..
_ الحمد لله ..
_ ما أحوال العمل ؟
_ الحمد لله ..

تفتح الباب ، أو تستدعيها نداءات من داخل البيت .
أدخل من الباب الجانبى ، إلى داخل البيت الذى يضم السكن
والجريدة . وكنت أجاوز باب البيت إلى المكتب . يترامى
صوت ضربات الأم بالمهباش ، وهى تطحن البن فى هون
النحاس . تعددت رؤيتى للأم فى مسيرها داخل فناء البيت .
ترتدى ملابس لا تكاد تبدلها . ما يشبه القميص ينسدل إلى ما
فوق الركبتين ، ومن تحته سروال عريض ، ينتهى عند
كاحلى القدمين ، وتلف رأسها بعصابة سوداء ، وتدس قدميها
فى شبشب من البلاستيك . ربما ألمح زوينة تطعم العجوز
وهو جالس على كرسى فى الساحة الترابية داخل البيت .
تدس لقيمات الخبز فيما لا أتبينه من طبق ، فيلتقطه بفمه .

ابتسم لوقفه الولد الصغير وراء الباب ، يمد عنقه ونظراته فى دخولى البيت وخروجى منه . أضمن من نظرته المتسائلة ، الباسمة ، أنه يستمع إلى كلام عنى من زوينة لأبويها ..

لاحظت أن أنفها هو منطقة التشابه بينها وبين أبيها ، أنف دقيق ، منمم ، وربما أخذت لون بشرته القمحي . شغلنى أن أتعرف إلى أسرتها . أزورها ، أرى البيت من الداخل ، وأجلس إلى والديها وأخيها الصغير ..

الناس فى الناحية المقابلة – أعلى الجبل – منغلقون على أنفسهم ، لا يميلون إلى التواصل . يكتفون بالتطلع إلى حياتى داخل البيت ذى السور ، نظرات صامتة ، خالية من التعبير . إذا هبطوا من الجبل إلى الحمرية ساروا مطرقين ، لا يتلفتون إلى ما حولهم ، ولا يجتذبهم صوت . لا يعنون بالنظر داخل الباب المفتوح ، ولا بإلقاء السلام ، إن كنت واقفاً بالقرب من الباب . حتى السحن بدت لى – فى الأيام الأولى – متشابهة . ربما للذقن المرسله ، المخضبة ، والدشداشة ، والمسرة التى تلف الرأس وأعلى الجبهة ..

كان الصمت – من حولى – يثير شعورى بالوحدة . تداخلنى وحشة . أميل إلى الانفراد ، لكننى لا أطيق العزلة .

كل ما حولى كان يفرض العزلة . يضايقنى حصار الجدران
الأربعة . لا أحد أكلمه ، ويكلمنى . أخذ منه وأعطى له . لا
أحد يفهمنى . أتوق لأن أحادث إنساناً . لكن : متى ؟ وأين ؟
وكيف ؟.. صخور الجبال تعيد _ فى الليل _ ما اختزنته من
الشمس طيلة النهار . ولا أحد فى الخلاء المحيط بى ..
هذه الصخور المدببة ، القاسية ، الملتهبة ، تناصبنى
العداء . بدت لى وجوه بشر ، أرسم ملامحهم من التكوينات
الصخرية ، وأبادلهم نظرات العداء ..
واتتنى رغبة ، فنفدتها . صحت باسمى . جاءنى صدى
الصوت بعد اصطدامه بالجبال الصخرية والهدوء ..
أحسست أن الدنيا تضيق بى ، تحاصرنى ، وأنى وحيد

..

يضئ المستطيل الصغير فى المواجهة : اربطوا أحزمة
المقاعد .. أطفئوا السجاير . أحيط الحزام حول جسدى ،
وأطمئن إلى إغلاق القفل المعدنى . أتهدأ لتلقى الارتجافة
العنيفة ، الأخيرة ، قبل أن تلامس عجلات الطائرة أرض
المطار . يصفق الركاب _ لوصولهم إلى الوطن ، أو فرحا

بالحياة؟! - ثم تتوقف الطائرة تمامًا ، وتظل الأبواب مغلقة . أنصت إلى حركة اقتراب السلم من الباب . أحرص أن أكون فى مقدمة النازلين بمجرد فتح الباب المستطيل . أطل من النافذة المطللة على ميدان المساحة ، كأنى أتوقع تغيرًا فى صورة الحياة التى كنت أحيها . ليس إلى الأفضل ، أو إلى الأسوأ ، لكنه مجرد تغير . مشاهد اختفت . حلت - بدلًا منها - مشاهد أخرى . توجه أمى أسئلة ، لأنها تتكرر فى كل عودة لى إلى القاهرة ، فقد اعتدتها : كيف تقضى يومك ؟ من يطبخ طعامك ؟ هل تتغطى جيدًا ؟ هل تطول إقامتك فى مسقط . أجيب بعبارات مقتضبة ، أو مدغمة ، أو أومئ بما يطمئنها . أتأمل ملامح أبى ونحن نتكلم . يجيب عن أسئلتى ، ولا يسأل . يلوذ بالصمت . لاحظت - مرة - أن مساحة الصلع زادت فى مقدمة رأسه . انفراجة شفتيه تبين عن فقد السننتين الأماميتين .

فاجأتنى ملاحظة أبى :

— أنت تأتى بحقائب ، وتسافر بدونها ..

ثم وهو ينحى وجهه عن اتجاه نظراتى :

— لماذا لا تأخذ الحقايب نفسها وتعود بها ، ولو فارغة

؟

لم أعد أذكر عدد الحقايب التى اشتريتها من أسواق
مطرح وروى والسيب . أخلو إليها ليلة السفر ، أرتب ما
اقتنيته بعينى أُمى وأبى وأختى ، ما أتصور أنهم يريدونه ،
ولا يجدونه فى القاهرة ..

ومها ، مها : هل تذكرنى ؟ ..

قلت :

— أخشى أن يسئء رجال الجمارك فى مطار السيب
معنى الحقايب الفارغة ..

اغتصب ضحكة :

— أثق أنه لا يغيب عنهم مرض الشراء الذى يعانيه
المصريون ..

أفضل العودة إلى القاهرة فى غير إجازة الصيف .
تضايقتى المساحة فى المطار التى تخصص للمصريين .
يضاعفون أوزان الأمتعة ، يفصلون ، يساومون ، يوافق
موظف شركة الطيران - فى النهاية - على زيادة لا يطلبها
المغادرون من جنسيات أخرى ..

الزمن يتضاعف حين وصولى إلى مسقط . خمس ساعات هى المسافة بين القاهرة ومسقط ، لكن الزمن يباعد بينى وبين القاهرة . تبدو بعيدة فى الزمان بعدها فى المكان . أضواء مسقط تبدو تحت جناح الطائرة الضخم . نقاط مجتمعة أو متفرقة ، متناثرة وسط ظلام حالك . أعرف أنه موضع الجبال التى تتخللها الطرق والأبنية . صوت فى ميكروفون الطائرة يكرر التنبيه إلى ربط الأحزمة وإطفاء السجائر . تسرى موسيقا راقصة ، هادئة . لم تعد مفردات المطار تستلفت نظرى ، ولم أعد أتأملها : الساحة الواسعة ، المختنقة - فى أغلب الأيام - بالحرارة اللاهبة ، والرطوبة . نوافذ برج المراقبة . صالة الوصول . الحجر الصحى . الجوازات . رجال الشرطة بزيمهم الأزرق وأجسادهم الضئيلة

..

أفتح الباب . أشم رائحة الهواء الراكد ، والغبار المتراكم على الأثاث القليل ، وعلى الأرض . أطيل النظر إلى ما بداخل الحجر ، كأنى أراها للمرة الأولى ، أو أنى أعيد اكتشافها . تتسلل إلى أنفى رائحتها ، رائحة اعتدتها وميزتها . تبدو القاهرة بعيدة بعيدة ، وأعانى شعورا مؤلما-

بالغربة . تختلط لحظات ما قبل السفر بالحياة _ لساعات _
فى الطائرة ، بالنزول إلى مطار السيب . تختلط حتى ملامح
الوجوه واللغات واللهجات والأماكن . أجدب _ بعفوية _
ورقة شركة الطيران الصغيرة ، عليها كلمة Muscat .
أمزقها إلى قطع صغيرة ، وأذف بها فى السلة المجاورة
للمكتب الصغير . أدير مسمار الساعة إلى الوراء دورتين ،
فرق الوقت بين القاهرة ومسقط ..

نقف بسياراتنا أمام مبنى المطار قبل وصول الطائرة
بساعتين . نستقبل ، أو نودع ، أو نمارس الفعلين . نتناثر _
مجموعات _ وقوفًا ، أو نجلس على الرصيف المقابل .
الطائرات تأتى بوافدين جدد ، بصدقات جديدة ، وتطير
بأصدقاء إلى مدنهم وقراهم ، حيث لا يعودون . يعدون
باستمرار الصداقة والرسائل والمكالمات التليفونية . يتبادلون
العناوين . العائدون من القاهرة يحملون رسائل وأخبارًا
وصحفاً جديدة . أحرص فأنا أول من يقرأ الصحف . إذا
انتظرت حتى يقرأها أصدقائى قبلى ، قرأتها ممزقة . أحن -
وأنا أقلب الصفحات _ إلى زملائى فى الجريدة . حتى
هؤلاء الذين اقتصرت علاقتى بهم على إيماءة الرأس بالتحية

، أو الكلمات العابرة . ربما تتأخر الطائرة ، فتطول وقتنا .
نزجى الملل فى أحاديث بلا أفاق ، وتأکید المعرفة ، والتذكر ،
، وإطلاق النكات ، ومناقشة أسعار الريال والدولار ،
وأحوال الجو . يحل علينا التعب ، فنجلس على حافة
الرصيف المقابل . لا نستطيع التصرف نفسه فى مصر .
نهمل أوضاعنا الوظيفية والاجتماعية . الغربة تسوى بيننا .
يضيف إليها انتظار الصديق المشترك . لا تكلف ولا ألقاب ،
وعفوية الكلمات لا يحدها قيد . يعلو صوت الميكروفون :
أرجو الانتباه . يتقاطر القادمون من الباب الذى يفتح ويغلق .
تحاول نظراتنا أن تتطلع إلى ما وراء انفراجة الباب التى ما
تلبث أن تغلق . تتوالى الأسئلة . ربما ضاق بها البعض أو
دهشوا لسذاجتها . أريد أن أعرف كل شئ ، حتى أحوال
الجو ونتائج مباريات الكرة وبرامج التلفزيون وما تنشره
الصحف ..

تباعدت رسائلى إلى القاهرة . لا جديد أراه أو أسمعه ،
فأتحدث عنه ..
الملل !!

ملل بليد . تحدثت عن الوحدة والغربة والشمس
والجبال والحشرات وانشغالى القاتل فى جريدة أحررها
بمفردى ، ثم لم أعد أجد ما أكتبه . اكتفيت بالرد على
الرسائل التى تصلنى من القاهرة ..

— هل تريد شيئًا؟ ..

التفت ناحية الصوت . سلمت على خميس المناعى ..

قلت لمجرد أن أتكلم :

— ألاحظ وجود كلاب بوليسية فى المطار ..

قال :

— إنها للطائرات القادمة من الهند أو باكستان .. تأتى

العمالة من هناك بالمخدرات

صرنا صديقين . هو الوحيد من زائرى الجريدة الذى

يدفع الباب ، وأتبين خطواته التى أخمن وقعها ..

تعرفت مما يرويه إلى ما لم أكن أعرفه عن الحياة فى

مسقط ومدن الداخل : التاريخ والمعتقدات والعادات والتقاليد

. حتى طقوس الزواج والموت تعرفت إليها مما كان يرويه

..

أعاد السؤال :

— تودع أم تستقبل ؟

— أنتظر صديقا ..

وسألت فى لهجة مشاركة :

— وأنت ؟..

— أودّع هؤلاء الملاعين ..

وأشار إلى ثلاثة رجال وثلاث سيدات . كانوا يجلسون
فى الزاوية اليمنى بصالة الانتظار . يرفعون أعينا قلقة ، تابع
— دون تنبه — حركة المطار ..

وأطفأ السيجارة فى طفاية مجاورة بضغطة من طرف
إصبعه :

— تسفير الأجانب مهمتى الأولى هذه الأيام ..

قلت :

— زملاؤك فى الشرطة ..

— كل موظفى الشرطة عمانيون ..

وتحسس طرف شاربه ، وغمز بعينه :

— ضبط الأزواج يتبادلون الزوجات ، فتقرر تسفيرهم

..

السحن تشى بأوروبية الجنسية . شطر الرجال شعر
رءوسهم إلى نصفين مثل عرف الديك ، وزججوا الحواجب ،
وكحلوا الأعين ، وتناثر فى السواعد وشم أخضر بصلبان
وأسمك وقلوب . وترتدى امرأتان فستانين متباينى التصميم
واللون ، وإن كشفا عن أعلى الصدر والظهر ، وانتهيا إلى
ما فوق الركبتين ، بينما ارتدت الثالثة بلوزة حمراء ،
التصقت بصدرها ، وبنطلون جينز ، التصق بفخذها وساقها
وثة أقراط تتدلى من آذان الجميع وأنوفهم ، واصطبغت
شعورهم باللون الأخضر ..

حدست التوتر ينطق فى عيونهم ، وهم يترقبون النداء
: أرجو الانتباه !..

قال خميس المناعى :

— مجتمعنا يتغير .. المقارنة صعبة بينه وبين أيام

سعيد بن تيمور ..

وفى لهجة مهونة :

- فى أيام التحولات تنشأ هذه الظواهر الغريبة ..

مسقط لا تعرف السهر ..

أجرى بعد الغروب ما يفوتنى من لقاءات فى الصباح .
أقف أمام البيت قبل الثامنة . تصطف السيارات بحذاء
الرصيف . تقل الحركة بعد صلاة المغرب ، ثم تموت - أو
تكاد - بعد صلاة العشاء . أمضى ناحية المطار القديم .
أبطئ السير . اتجه إلى سينما عمان بلازا ، فالطريق
الرئيسى إلى كورنيش مطرح . أقف أمام الرصيف الحجرى .
أنتطلع إلى امتداد الأفق . أتابع - بلا اهتمام - البواخر
الراسية فى ميناء قابوس والبلاسات والفلايك والحاويات
والصيادين والطيور المحومة فوق المياه والأسماك المتقافزة
. أعود إلى الحمرية بعد الثامنة بدقائق . يبدو المكان أمام
الرصيف خالياً من السيارات تماماً . أغلقت الدكاكين
والمكاتب أبوابها ، وهدأت حركة السير ، وتوالى انطفاء
الأنوار فى النوافذ المغلقة . يعمق الصمت هدير المكيفات ،

وصفارات البواخر فى خليج عمان . يبدو لى المكان غريبًا ،
موحشًا- ، لا أعرف فيه أحدا- ..

حتى المغرب ، تبدو الشوارع خالية من المارة . فيما
عدا السيارات المغلقة ، المكيفة الهواء ، لا أثر للحياة . يعلو
الإيقاع بالتدريج . تبلغ الحياة ذروتها إلى ما بعد العشاء . ثم
تخلو الشوارع إلاّ من الوافدين . يحرص العمانيون أن يغلّقوا
أبواب البيوت أول الليل . نوبة قلعة الميراني كانت تخلق
الشوارع من البشر تمامًا . لا يسير إلاّ من يحمل الفانوس ،
ولا يسير إنسان بعد أن ينتصف الليل ..

بدأت فى الأيام التالية لموافقتي على السفر . فى تصور
المكان الذى ربما أقيم فيه . بدا لى شقة علوية تطل على
المدى . الصحراء باتساعها وغموضها المثير . الناس قليلون ،
يرتدون الدشداشة والعقال كما أرى أهل الخليج فى الصور

..

انشغل شوقى كمال بتدليك موضع لدغة فى عنقه :

— أنت إذا أردت أن تحتفظ بالطعام وضعته فى الثلاجة

، فإذا طالته الشمس - لفترة طويلة - لم يعد صالحًا- ..

— أرى أنك لا تريد أن تفارق الشمس ..

قال فى استسلام :

— حياتى هنا مثل الساقية .. لا نهاية لدورانها ..

قلت :

— لأنك تصرف كل فلوسك ..

كنت أزوره فى الشقة التى يعمل ويقيم فيها . حارة
خلفية بالوالجة . على المكتب الخشبى المستطيل أمامه كتب
وصحف وأوراق وأقلام وطفاية سجائر وسخان كهربائى
وكولمان وزجاجة خمر ، وأسراب الحشرات تتزايد أعلى
الحجرة ، تشكل ما يشبه الغمامات الصغيرة . وثمة صوت
مولد كهربائى يترامى من مكان قريب ..

لم تكن المجلة تشغل شوقى كمال . مجرد قص ولصق
. لكنه — فى زيارتى المتباعدة — كان يطلب أن أتشاغل
بقراءة كتاب من مكتبته — رف عليه مجموعة من الكتب —
لينهى كتابة رسائل إلى القاهرة . يكتب على أوراق نوتة
صغيرة . يعيد قراءة الرسالة . ربما حذف كلمة ، أو أضاف
عبارة ، ثم يدسها فى المظروف . على مكتبه دائما رزمة من
المظاريف ..

— ما أخبارك ؟

أشعر – حين يتجه بالسؤال – أنه قد أنهى كتابة رسائله ..

يرتشف كمية من الزجاجاة ، ويعيدها إلى مكانها . فى حوالى الخامسة والثلاثين . يبدو وجهه النحيل ، الأبنوسى البشرة ، ساكن الملامح ، وإن شاب بياض عينيه صفرة واضحة . يضغط على الحروف الأخيرة فى كلماته ليؤكد المعنى ، أو لعيب فى النطق ..

أزعجنى التعبير حين قاله الطبيب فى مستشفى النهضة : التصاق فى البطن . كان شوقى يواصل الكلام واحتساء الخمر . تتباطأ نبذة صوته ، ويغلب عليها التعثر . أدرك أنه يدخل النفق المفضى إلى هناك ، وأنه - شيئًا فشيئًا - ليس هنا . أسكت ، وأتظاهر بالإنصات إلى ما لا أفهمه ، أو أمضى . انتترت للصرخة المفاجئة . أحاط بطنه بساعديه ، وعلت صرخاته كالعواء . غلبنى الإشفاق ، وربما الخوف . تصورت أنه يموت . حملته فى تاكسى إلى مستشفى النهضة . شحص الطبيب الحالة من رائحة الخمر وساعديه المطوقين لبطنه وصرخاته ..

التصاق فى البطن؟!.. ألن يأكل – بعد ذلك – أو
يشرب ؟ هل أصيبت البطن بالشلل أو ما أشبهه ؟ هل يموت
..؟

داخلى اطمئنان بطلب الطبيب أن أخلى الحجرة ،
ليعالجه . لو أنه يعانى ما اتجه ذهنى إليه ، لأدخله حجرة
العمليات ..

كُتبت لأبى بما حدث ..

قال أبى فى رسالة محذرة : لا تدعه ينقل إليك اكتبابه !
قللت – فيما بعد – من زياراتى المتباعدة لشوقى كمال

..

– يحزننى أن الأيام التى أقتل فيها نفسى لن يبقى منها

ما يساوى ..

غالبت التردد :

– لماذا لا تعود إلى القاهرة ؟

– أحتاج إلى الريالات العمانية ..

أطلقت لجام جرأتى :

– أنت تنفقاها على الخمر ..

– يتبقى ما أستطيع أن أحوله إلى القاهرة ..

ثم وهو ينفث دخان السجارة فى عصية واضحة :
_ هل لابد _ لكى أحيا فى ظروف مادية جيدة _ أن
أترك مصر ؟..

فوت الملاحظة :

_ وصحتك ؟

_ بمب !

_ ومستقبلك ؟

_ أنا صحفى فى القاهرة أو فى مسقط ..

ضربت ما لم أتبينه بكفى :

_ تبسيط للمشكلة أثق أنك لا تقتنع به ..

استطردت فى صوت منفعل :

_ هل تساوى صحف القاهرة بما نفعه هنا ؟..

ثم هزمنى التأثر :

_ عشت فى الخليج ثمانية أشهر .. أصارك بأن

شعورى بالغبرة لم يتغير !..

حاولت أن أخلق لنفسى عالماً خاصاً من القراءات ،

وسماع الراديو ، والانغماس فى العمل ، واستدعاء ما خلفته

فى القاهرة ..

كان أول انطباع لى - حين رأيته - أنى سألتقى بها
ثانية ، وستكون لى بها صلة ، وإن لم أفكر كيف يتاح لى
اللقاء . لم أعد أنتظر تحيتها ، فأرد عليها بإيماءة ، أو
بكلمات مقتضبة ..

فاجأتى النقرات الخافتة ، المتلاحقة ، على الباب

الخارجى :

- هل عندك وعاء كبير ؟

أطلت النظر إليها ، أتأكد من فهمى لما طلبت :

- لماذا ؟ ..

- نذر لشفاء أبى ..

واتسعت ابتسامتها :

- نحن زنجباريون .. هذه عادتنا ..

- هذه عادة معظم المسلمين ..

وضع القدر الهائل على كومات الحطب ، وقف وراءه
هندي عارى الصدر ، ويغطّي أسفل جسمه بوزار . تعلق
المغرفة – هائلة أيضا- – فى يده بقطع اللحم الغارقة فى
الشوربة . يضعها فى الحلل المتلاصقة بتجاور الأيدي
الممدودة ..

ألفت نقرات إصبعها على الباب الخشبى . نقرات
ضعيفة متوالية ، وإن تناهت إلى حجرتى الداخلية خلل
السكون المحيط . تتناقش ، وتتفق ، وتختلف ، وإن ظلت
وقفتنا أمام باب الجريدة الخارجى ..

كنت مدفوعا- إليها بالوحدة التى أعانيها . بدا لى –
أحيانا- أنها تبحث عن المغامرة ، علاقة فرضتها الجيرة ،
وإن ظل ما يشدنى إليها صبيانية جميلة فى كلماتها
وتصرفاتها ، فى ومضة الشقاوة فى عينيها اللوزتين ،
الواسعتين ، وفى تهدل الشعر على الجبهة ، وتطايره إذا
هبّت نسمة هواء . العفوية تنطقها . لا تعتمد اختيار كلماتها ،
ولا تلاحظ إن أحدثت الكلمات ما تريده من المعنى أو التأثير .
ذلك ما يهبه السياق ، تواصل الكلمات . حتى حقيبة يدها ،
كانت تفتحها بطفولة واضحة ..

أعرف أن المجتمع يصعب عليه أن يأذن لشاب وفتاة بإقامة علاقة على مرأى منه . النساء وراء الجدران المصمتة ، والرجال فى الشوارع والدكاكين والشركات والسيارات . الاستثناء يؤكد الظاهرة . هى تزورنى لأنى غريب . قد يروى المواطن ما يحدث دون أن يتدبر النتائج . أما الغريب فإنه يواجه ما لا يخطر على البال .. أزمعت أن تحيا العلاقة فى السر ..

قلت :

— لو لم نلتق ربما عدت إلى القاهرة ، أو اعتبرت نفسى ميتًا فى مسقط !

دخلت بيتى للمرة الأولى ..

لاحظت أنها تتعامل مع الجميع - فى ساحة المطار -

بثقة ، وبلا حرج . أى نوع من الفتيات هى ؟ ..

تصورت - فى لحظة كالومضة - أنها متحررة من

سطوة أهلها . لا سلطة لأحد عليها ، فهى المسئولة عن

نفسها . اجتذبتنى بساطتها منذ التقينا للمرة الأولى ، منذ

رأيتها فى صالة مطار السيب ، مفاجأتها لى بالكلام ، دعوتها

لأرافقها إلى وسط المدينة ، زياراتها المتكررة ..

لم ألتق بها فى الزى العمانى : اللحاف ذو الألوان الصارخة ، فهى ترتدى يونيفورم مضيقات طيران الخليج ، تاير-١ بنيا- وبلوزة بيضاء . أو تبدل الجونلات والبلوزات . وتحيط رأسها بإيشارب بنى من الحرير ، أو تعريه . أعرف ما ترتديه بتبدل الألوان . وكانت تكفى تحت الإيشارب بعقص شعرها فى هيئة الكعكة وراء رأسها ..

قلت :

— لم أكن أعرف شيئًا — قبل أن ألتقى بك — عن المضيقات الأرضيات ..

قالت :

— معظم المضيقات يعملن على الأرض .. لاحظت اختلاف الزى واللهجة والتصرفات فى العمانيين القادمين من زنجبار . الميل إلى التحرر وعدم الكلفة . لم تحدثنى عن طبيعة الحياة فى زنجبار ، وإن خمنت أنها كانت تختلف عن الحياة فى مسقط . كانت ملامح الحياة العمانية تغيب تمامًا حين تضمنا حجرة المكتب المفتوحة على الساحة الترايبية الساكنة . تطعم تعبيراتها بكلمات إنجليزية ، خمنت أنها تعوض بها صعوبة النطق بالعربية . اللهجة

ليست عمانية تمامًا . تداخلها لكثرة لم أفصح في تحديدها .
تصورت تأثيرها بالحياة في زنجبار ، ثم تبينت في كلماتها
مفردات تطالبنى بمساعدتها على استكمال سياق الكلمات ..
ارتبكت لرؤيتها وهي تنظر إلى الجورب الممزق ، ثم
وهي تجلس على الكرسي المقابل ، وتمد ساقها ، وتنزع
الجورب ، وتجلس حافية ..

أزمعت أن أغزلها بجرأة ..
الباب موارب ، لماذا لا أفتحه ؟ .. أجاوز لحظة التردد
والخوف ؟ ..

وهبتنى من التلميحات والإيماءات ما يشجعنى على
ملامسة قطر الندى ..

ملت عليها ، أحتضنها ، وأحاول أن أقبلها . لم أقرر
ذلك ، ولا تدبرت نتائجه . بدا الأمر عفويًا ، كأنه وليد ذاته ،
وليد اللحظة ، غير موصول بما سبق ، ولا بما بعد ..

دفعتنى فى صدرى بآخر ما عندها . أربكنى تغييرها :
الوجه الطفولى الجميل حواره الغضب . تبدلت الملامح ،
واحمر الأنف والأذنان ، وتسارعت الأنفاس ، والتمعت
العينان بالدمع ..

عدت إلى ما كنت كتبته فى روايتى التى لم أتمها ..
لاحظت أن البطل شغلته اللحظة ، فأهمل توقعات
المستقبل . أزمعت أن أضيف إلى الشخصية بما يبين عن
باعث الأزمة والتصرفات ..

لم تعد تسلم ، ولا أسلم ...
العلاقة التى لم تبدأ ، انتهت . بدا لى أن شخصا آخر
هو الذى أقدم على ما فعلت ، هو الذى حاصرها فى حجرة
المكتب ، واحتضنها ، وحاول تقبيلها ..
أحسست أن نفسى قد تبعثرت ، وأن كل ما حولى
يحاصرنى ، ويخنقنى : الشمس ، الجبال ، الصمت السادر ،
الوجوه المتطلعة ، الساكنة . عاودنى الإحساس بالفراغ
الموحش . عدت إلى عزلتى الموحشة . السكون الخامد فى
بيت الجريدة ، والجبال ، والوجه المقابل المقلق ، وجولاتى
السريعة - برفقة السائق الهنذى - للبحث عن مواد الجريدة
، وزيارات الشيخ النبهانى وأصدقائى ، المتباعدة . انغمست
فى العمل والوحدة . يبدو الناس - من حولى - أشباحا- ،
والأصوات أصداء غير واضحة ..

كنت أغمض عيني ، تستعيدان الملامح الطفولية ،
والعينين الواسعتين ، والشعر المهوش حول الوجه . أعاد
النظر من مكانى فى المكتب - عبر الباب الذى فتحته عن
آخره - أتوقع دخولها البيت ، أو خروجها منه . هل تلتفت
ناحية الباب المفتوح ؟ هل ينعكس اهتمامها فى تصرفات
موحية ؟. أطيل الوقوف فى الحجرة . أحاول تذكر ما قد
أكون نسيتة ..

مرة وحيدة التقت عيناى بعينيها لما . كنت أعالج المفتاح
فتحت باب بيتها وتهيأت للخروج . كانت ترتدى فستانا-
من الأورجاندا الزئبقية ، بكمين طويلين ، وشتة الدانتيل فى
المعصمين وفتحة الصدر ..

حولت عيني - فى اللحظة التالية - إلى الناحية
المقابلة ، ربما لأنها أقدمت على التصرف نفسه ..
لم أتصور أن تلك كانت نهاية العلاقة . هى غيمة
شابت صفو السماء ، ومضت . أثق أنها ستكلمنى ،
وسأكلمها . البيت أمام البيت ، والمصادفة تفرض اللقاء ..
صباح الخير .. صباح الخير . لم ألح ، فقد اعترفت بخطئى ،
ولعلها تستعيد ما حدث ، فتعذر ..

طالعنى فى الباب المفتوح شابان يرتديان " يونيفورم " شركة الطيران . دلتهما على البيت . خرجت للقائهما وأنا واقف على الباب أنتظر انصرافهما ..

قالت :

— أشرك ..

سلمت على بعد ذلك . وتحدثنا ..

لم بيد فى وقتها ارتباك ، ولا ما يشى بأنها امتنعت عن لقائى ومبادلتى الكلام ، وإن لاحظت أنها تبذل جهداً كى تظل العفوية فى وقتها وملاحها وكلماتها وعينيها الواسعتين . لم تشر إلى ما حدث ، ولا عاد فى سلوكها معى أثر للغضب ولا للضييق ، لكن الحائط غير المرئى فصل بينى وبينها ، لا أفكر — ولا أستطيع — فى أن أخترقه . تصرف مجهول النتيجة ، وربما تخرج من حياتى ثانية فلا تعود ..

عادت الطرقات الخافتة ..

ضايقتنى — فى الأيام الأولى — غياب ما اعتدته من عفوية فى الكلام والتصرفات . ثمة مسافة نشأت بينها وبينى

. ضاقت – بتوالى زياراتها – حتى تلاشت ، وإن ظل
الفاصل غير المرئى قائماً ..
بدت هادئة وودودة ، كما لو أن كل شئ مثلما كان عليه
فى الأيام السابقة ..

كلما اقتربت منها ، تبدت لى جوانب البراءة فيها . لم
تغادر سجيتها : تروى ما تتذكره من أحداث يومها ، ما رأته
، واستمعت إليه ، وقرأته ، تتأمل فى ملامحى وقع أسئلتها
المفاجئة . ربما تستدعى نكتة أو حكاية قديمة . تعكس
الجدران أصداء ضحكها المكنومة . إذا ضحكت تألقت
عينها بالمرح ، مرح طفولى صاحب ، تتداخل فيه الألوان
والأصوات . يتسلل داخلى شعور بالاطمئنان والسلام ..
كانت تفعل كل شئ : تستعيد النظام الغائب فى الأوراق
والكتب . ربما أمسكت بمنفضة من خيوط بلاستيكية ،
وأزالت ما علق على المكتب والكراسى من أتربة ، تبثها –
مع الصهد – الجبال المحيطة بنا . تلم الملابس المتسخة من
فوق الشماعة والمكتب ، ومن الأرض ، تطويها ، وتنصحنى
بإرسالها إلى المغسلة فى روى . ترتب القمصان والبذل
الثلاث فى الدولاب . تغسل الأطباق والأكواب والفناجين .

تجفها . تصفها فى مواضعها على الأرفف . تأخذ كرسيها من المكتب إلى المطبخ . تصعد عليه . تشب على أطراف أصابعها . تأخذ الحلة من فوق الرف العلوى . أبتعد إلى الساحة الترابية حتى لا تأمل وقفتها ، وحتى لا تلاحظ نظراتى ، فتذهب - مثلما ذهبت من قبل - ولا تعود . لم تكن تترك لى فرصة مجاوزة الحدود التى وضعتها . هى التى حددت إطار علاقتنا ، وهى التى تملك مجاوزته . لم أعد أتطلع إلاّ لمجرد أن ألتقى بها . أخشى لو أنى أقدمت على ما لا تتوقعه أن أفقدها ثانية ، ونهائيًا ..

تربعت - حافية القدمين - على " الفوتيه " الجلدى المواجه للمكتب . لاحظت اعتزامى ترك ما بيدي من قصاصات ألصقتها على أوراق الماكيت ..
- لا تترك مكانك .. سأكلمك هكذا ..

لم تحاول ، ولا حاولت أنا ، التلميح ، أن تنتقل من حجرة المكتب إلى الحجرة الثانية . لا أترك حجرة المكتب . إذا لم يكن تناولى وجبات الطعام فى مطعم بروى ، أكتفى بمعلبات من السوبر ماركت فى " الولجة " ..

واصلت لصق القصاصات ، وإن اتجهت نظرتى إليها..

- هل عندكم ضيوف ؟

- لا ..

- رأيت سيدة تغطى جسدها كله ..

ضحكت :

- إنها أُمى .. كانت ترتدى البوى بوى ..

أعدت القول :

- البوى بوى ؟!

- منديل أسود خيط بملاءة سوداء تغطى الجسد كله ..

ترتديه الزنباريات ..

وعلا صوتها بالتذكر :

- أنت مسافر إلى الكويت غداً ..

استدرت . واجهتها :

- صحيح .. كيف عرفت ؟..

- نسيت أنى مضيضة أرضية ؟..

- صحيح .. يومان أطبع فيهما الجريدة وأعود ..

تألقت الدهشة الطفولية فى عينيها :

— تطبعون جريدتكم فى الكويت ؟..

— لا يوجد فى مسقط حتى الآن إلاّ المطبعة

الحكومية..

استطردت فى ابتسامه مشجعة :

- هل تريدن شيئاً من هناك ؟..

— إذا استطعت ..

ثم وهى تهز إصبعها :

— سأدفع لك ..

ومسدت رأسها بعفوية :

— حذاء من الجلد الإيطالى .. مفتوح ..

شوحت بيدي فى تهوين :

— بسيطة ..

ونظرت — بتلقائية — نحو قدميها . كانت ترتدى حذاء

بنيًا متقاطع السيور ، له كعب قصير ، تطل منه أصابع

صغيرة مطلية بالمانيكير ..

— المقاس ؟..

— ثمانية وثلاثون ..

— سيكون أول ما أبحث عنه ..

ثم وأنا أستحثها بهزة من رأسى :

- هل تريدين شيئاً آخر ؟..

مطت بوزها دلالة النفى ..

لاحظت أنى ضربت حشرة بأوراق مطوية فى يدى .

قالت :

— هذه أرواح موتانا تتقمص الفراشات !..

تأملتها : وجه خال من الأصباغ والألوان ، وشعرها

الأسود القصير المهوش حول وجهها . لم تكن تستخدم أدوات

التجميل ولا مزيلات الشعر . فلا كريمات ، ولا إزالة لشعر

وجهها أو ذراعيها أو ساقها . حتى الزغب الأصفر فوق

فمها ، تهمله ..

ناوشنى السؤال لحظات : هل تصدر تصرفاتها عن ثقة

فى النفس ، أو أن توقع تصرفاتى لم يعد يقلقها ؟..

لحظات ، ثم أهملت السؤال ، ونسيته ..

ما أعرفه عنها قليل ، لكن حضورها السخى كان قد

ملاً حياتى . أشرقت بوجودها داخل نفسى ، وأودعتها ذاكرتى

. أغمض عيني عليها حين أنام ، وأفتح عيني على استعادة

ملامحها فى الصباح . يظل فى داخلى الإحساس بأنها معى ،

تقف ، وتجلس ، وتتحرك ، وتتكلم ، وتعيد ترتيب الأشياء .
أحيا ملامحها الطفولية وابتسامتها ، والضحكة المميزة . حتى
طريقة ارتشافها الشاي من الكوب ، أستعيدها . لا أتصور
أنى أستطيع أن أبتعد عنها ، أو أنساها . إذا تخلفت – أكثر
من يومين – عن زيارتي ، يداخلى شعور بالانقباض
والوحشة . ثمة شىء ينقصنى . يغيب عن حياتى . وفى
اللحظة التى يتناهى صرير الباب ، وهى تتجه إلى بيتها ،
يعرونى شعور بأنى أصبحت أقل ارتياحًا مما كنت عليه ،
وأنى أعود إلى وحدة صامتة ، قاسية ..
انفتحت أمامى أبواب عالم جديد ، يتألق بالرؤى
والظلال والأنغام العلوية ..

الظهر ..

كان ظل الصخور قد تلاشى . واختفت الظلال فى
الساحة الواسعة ، الخالية من الأشجار والجدران . لم يعد إلاّ
أشعة الشمس العفوية ، الحارة ، القاسية . المروحة المتدلية
من السقف ، عاجزة عن تحريك الهواء ، أو أنها تحرك هواء
ساخناً . استعدت قول زوينة : أبى يتقى الحر بالنوم فوق
السطح على مرتبة يغمرها بالماء ..

كنت منهمكاً فى مراجعة مسودات الجريدة ، وإن قيدت
الحرارة اللاهبة ، الحرية التى أريد أن أتصرف بها . أحس
بالاختناق ، وبالتوتر والبلادة . لم يعد فى داخلى إلاّ الشعور
بالوحدة ..

قلت لنظرة الأستاذ عبد العال المشفقة ، فى وقفته على

باب الجريدة :

— هذا الجو يدفعنى إلى الاعتراف بجريمة قتل لم
أرتكبها!..

كان عبد العال يعانى عرجاً خفيفاً . لاحظت أن له
قدماً متورمة . لم أسأله عن طبيعة مرضه . مع أنه كان
يكبرنى بسنوات ، فإنه فاجأنى — ذات مساء — بالقول : أنا
أستريح للفضضة معك .. أعتبرك مثل أبى ..
ضايقتى التعبير . لم أكن أشعر بالارتياح معه ، ولا مع
أى إنسان ..

جلس لصق باب الحجرة ، مستروحاً — ربما — نسمة
هواء ..

فاجأنى بالقول :

— ما رأيك فى الموت ؟

ترددت فى الإجابة ، ثم أعدت القول :

— الموت ؟!..

ورمقته بنظرة فاترة :

— لم أفكر فى هذا الموضوع ..

أبدى دهشته :

— لماذا؟ .. حتى نوح صاحب المنات من الأعوام لم
يخلد ..

ثم وهو يوسط الفراغ بيده :
— لا أحد يخلد ..

قلت :

— أعرف أنى سأموت .. لكننى أترك هذا الموضوع
لوقته ..

قال :

— ألا تلاحظ أن الموت قد يكون الحل لمشكلات كثيرة ..
— لم أصادف حتى الآن مشكلة من هذا النوع ..
أردفت فى نبرة مهونة :

— أنا أفكر فى الموت من قبيل العبرة .. لكننى أرفض
أن يسيطر على حياتى ..

— أعرف أصدقاء تمنوا الموت فراراً من ظروف
قاسية !

وتهدج صوته بالانفعال :

— عموماً .. أنا أعتبر الحياة مجرد محطة ..
وأردف فى انفعاله :

— لو أن الإنسان أدرك النهاية ربما لا يفعل الخطأ! ..
ومال بأعلى كتفه ناحيتي :

- أنت لا تهتم بالموت لأنك شاب .. أليس كذلك ؟ ..
— بالعكس .. أنا أعرف أن الموت لا يفرق بين شاب
وشيوخ ..

— هذا صحيح .. لكنك تظهر الضيق إذا تكلمت عن
الموت ..

— ليس إلى درجة الضيق .. لكننا يجب أن نعيش أيضاً ..
..

— نحن نحيا ، ثم نموت ..
وأغمض عيني ، وتنهد بعمق كمن يستعيد نفسه :
— مادامت الرحلة بدأت دون إرادتنا ، فمن الأوفق
اختصارها ..

حدست أن الرجل يلامس — بزيارتي — تعزيز
إحساسه بالحياة ، وتناسى فكرة الموت ، لكنه لا يتحدث إلا
عن الموت . كأنه قد مات ، ويحيا ليتحدث عن الموت ..
- تنصح بالانتحار ؟! ..

— لا أنصح بشيء .. أنا عجوز يخرف ..

واجهته بالقول :

— يا أستاذ عبد العال .. ماذا يضايقك ؟ ..

وهو يتهياً للقيام :

- هل يحتاج الكلام فى الموت إلى سبب ؟! ..

بدا أنه يريد الفضفضة ، بنفس عن حصار يعانيه .
يحدثنى عن الموت ، يتوقعه ، وإن تمنى أن يفاجئه . لا
يدرى بمجيئه . ينام ، فلا يصحو . يأخذ شهيقاً ، فلا يلحقه
بالزفير . جننا إلى الحياة بإرادة الله ، ونخرج منها بإرادته .
المهم ألاّ يواجه ما حفظه — لكثرة ترديده — من سكرات
الموت . وكان يرفض — تنفيذاً — لأوامر الطبيب — تناول أى
طعام أو شراب بين الوجبات . بدا حذره الشديد من أخطار
السمنة مناقضاً لتفكيره الدائم فى الموت ..
لاحظت تلفته فيما حوله ..

قلت :

— لم أنته من قراءة الصحف ..

كنت أقبل على صحف القاهرة ، أفيد من موادها
لجريدتى . ألثمها ، فلا أترك حرفاً . حتى صفحة الوفيات
التي لم يكن يشغلنى — وأنا فى مصر — مجرد التطلع إليها ،

كنت أتعرف إلى القرابات والنسب والعبارات التي يناجى بها
الأحياء موتاهم ..

قلت بالتذكير :

— كنت أحلم بجريدة تستكتب أسماء مهمة .. وتباع في
كل المدن العربية ..

قال :

— هذا ما سيحدث بإذن الله ..

قلت :

— أنا أبدأ من الصفر ..

ونقرت بإصبعي على طرف المكتب :

— بالإضافة إلى مسئوليتي في التخلص من السمعة
السيئة للصحافة المحلية ..

وهزرت رأسي :

- معظم الصحف تصدر في أوقات متباعدة .. وتعتمد
جميعها على القص واللصق ..

وتلون صوتي بحزن :

- كنت أفضل لو بدأت في ظروف مختلفة .. لكن هذا

ما حدث ..

وضغطت على الكلمات :

— قدمت للعمل فى جريدة تصدر عن مؤسسة
مقاولات..

وأشرت إلى ما حولى :

— هذه هى ..

قلت للشيخ النبهانى :

— لاحظ أنك تعرف الكويت جيدا ..

قال الشيخ :

— عملت أعواما فى بلدية الكويت ..

ووشى صوته بتأثره :

— الحنين إلى مسقط أكلنى ، فقررت العودة ..

روى لى عن عودة الآلاف من العمانيين . سافروا إلى
مدن الخليج ومدن شرق إفريقيا . عادوا لمجرد إنهاء أعوام
الغربة . ليس فى أذهانهم مهن ولا وظائف محددة . شغلهم
العودة فى ذاتها . مجرد أن يعودوا إلى حيث ولدوا وأمضوا
أعواماً من حياتهم . حين سافروا بعيداً عن مسقط كانوا
يدركون أن السفر بلا عودة . يستطيع المرء أن يسافر ، لكن

عليه أن يبقى حيث رحل . من يريد الحياة فى السلطنة لا يتركها ، ولو للدراسة أو العلاج ..

قال عبد العال :

– لابد أن تتدرب هنا على ألفة كل شئ ..

ثم وهو ينتزع ضحكة :

– ربما توجد لافتة لشركة مقاولات على دكان بيع

البقالة والأحذية وما لا يخطر على البال !..

وعض شفته السفلى ، وأفلتها :

– هذه مجرد تسميات !..

لاحظ الدشداشة المعلقة على مسمار فى الحائط .

اشتريتها من سوق الظلام بمطرح . تعلمت من الشيخ

النيهانى كيف أفك أزرارها ، وكيف أعطّر الشرشابة .

تصورت أنى أنزل بها إلى الطريق . لكننى اعتبرتها منامة ،

فلم ألبسها خارج حجرة النوم . توقعى للطرقات الخافتة ،

كان يدفعنى إلى نزعها ، وارتداء البنطلون والقميص ..

قال :

– إن ارتداء هذا الشئ يعكس على تفكير الإنسان ..

- هناك من يرتدون الزي الأوروبي وأفكارهم متخلفة

..

— ربما .. لكن المستحيل أن تظل ترتدى الدشداشة ،
وتأمل فى أن تجاوز تفكير البيئة !

قلت :

— ألاحظ أن المجتمع العماني كأنه يقتصر على
الذكور..

رفت على شفتيه ابتسامة غامضة :

— المرأة غير موجودة فى هذه المجتمعات ، أو أنها
داخل البيوت !..

والتمعت عيناه بوميض التذكر :

— الشرطة أخذت زميلاً لنا من على باب عمان بلازا

.. امتنعنا عن إلقاء الدروس حتى أفرجوا عنه ..

تكررت رؤيتى لسيارة الشرطة تضع مؤخرتها أمام

باب السينما ، تلف كل المغادرين لسينما عمان بلازا .

جميعهم من الوافدين ، هنود وباكستانيون ولبنانيون وبنغاليون

ومصريون وفلبينيون وجنسيات أخرى . يخضعون للتصنيف

فى مركز الشرطة بالوطنية . يظل فى مسقط من دخل عن

طريق المطار ، ويعود إلى بلاده من قدم من مراكز الحدود .
يثق فى قدرته على معرفة البلد الذى ينتسب إليه وافد يراه
للمرة الأولى ، ولا يتبادل معه حديثًا من أى نوع . لا يحدد
بواعث التخمين . هى روح ، أو صورة كلية ، بلا تفصيلات
محددة ..

قلت :

- إنهم يعتبرون الإصرابات خطيئة مثل الكفر ..
- هل كنا نترك زميلنا فى الحبس ؟..
- وأنا أدير كوب الشاي فى راحتى :
- الحمد لله أن الأمر انتهى على خير ..

سرت فى شارع روى إلى نهايته . ملت إلى ناحيته
المقابلة بالقرب من جامع السلطان قابوس . المبنى من
طابقين . صعدت السلّمات العشر إلى بوابته الخشبية . فتح
لى الحارس العمانى . طالعنتى ردهة واسعة ، تحيط بها
حجرات مفتوحة ، ومغلقة . وثمة سلم إلى اليسار ، يصعد
إلى الطابق الثانى ، وطريقة مستطيلة ، على جانبيها حجرات
، وفى نهايتها نوافذ زجاجية عالية ، تطل على الشارع
الجانبى ..

قال لى خميس المناعى :

— إذا لجأت إلى مركز الشئون الاجتماعية ، فستجد
الكثير من الموضوعات لجريدتك ..
بدا لى ما قرأته كأنه دنيا السحر . دراسات أعدها
باحثون من مصر والعراق والسلطنة . الموروث الذى لم
يبدل ثباته توالى الأعوام : المعتقدات والعادات والتقاليد

والحكايات التي يصعب تصديقها . أذهلتني حكاية الزوجات
تطول بأزواجهن أعوام الغربة فى بلاد الخليج . يأتى الطيف
فى هدأة الليل ، يضاجع المرأة ، فتلد بعد تسعة أشهر .
يتكرر الحمل والولادة ، ويبعث لها الزوج - فى كل مرة -
اسم المولود ونفقته السنوية . نقل جامع بيهلا إلى نزوى ،
عقاباً من الملائكة على ممارسة محرمة داخل الجامع .
أعمال السحر التى تسخط الإنسان ، وتحيله حجراً أو صخرة
أو شكلاً شائهاً ، أو تمسخه إلى سمك . وثيقة عقد الزواج
بين ذكزين . حجرة الغلام المتفردة ، المطلة على الشارع ،
فى البيوت القديمة ..

قلت لخميس المناعى :

— ألاحظ أن المرأة العمانية ترقص أمام الرجال ..
ظاهرة خليجية نادرة ..

قال :

— بالعكس .. هذا ما يحدث فى الإمارات والبحرين
والكويت ..

ثم تساءل كالمتمذكر :

— هل شاهدت عرساً عمانيًا ؟

– شاهدت التليفزيون !

ما كدت أدخل حجرة المكتب ، حتى تنهى صوت
طرقات خفيفة على الباب الخارجى ..
أصخت السمع ، فعادت الطرقات واضحة ..
كنت قد اعتدت سماع نقرات أصابعها على الباب
الخارجى . تعلق بها إن لم أفطن إليها فى مرات تالية . إذا
دخلت حجرة المكتب طوحت حذاءها فوق الموكيت الأزرق
. أستعد لزيارتها بتعمد الفوضى فى حجرة المكتب . أتوقع
أنها ستعيد ترتيب الكتب والأوراق والأقلام . حتى الملابس
التي تعمدت إلقاءها فى غير موضع ، وأترك الأشياء مهملة
. أدرك أنها ستضعها فى أماكنها على الشماعة ، أو داخل
الدولاب ، تجرى فيها بالترتيب أو النظافة . تملأنى النشوة
لمجرد أنها تلامس أشياءى : ثيابى ، كتبى ، أوراقى ، كوب
الشاي . أتأمل أصابعها وهى تلامس ما يخصنى . أتمنى –
بينى وبين نفسى – لو أنها أذنت لى بتقبيل الأصابع
المخروطة ، الجميلة . أرجو ابتسامتها المشفقة لتأثيرات
الوحدة التى أعانيها ، وإن كنت أحرص على كى البنطلون

والقميص ، ونظافة الحذاء . حتى النظارة الطبية أجرى عليها بقطعة قماش صغيرة ..

أثق أنها ستأتى . تصل إلى بيتها . تظل إلى المساء ، ثم تأتى . كنت أنشغل بانتقاء الكلمات التى سأقولها ، وترتيبها . تختلط الكلمات - عند مجيئها - وتتشابك ، أو أنسى ما أعدته تمامًا . أغمغم بكلمات لا أتدبرها جيدًا ، وإن حاولت التعبير عن الترحيب . ثم حرصت ألا أعد الكلمات التى سأقولها . أترك للكلمات عفويتها ، لا أتعمد اختيارها . أسأل وتجب . تسأل وأجيب . تتناقش فيما يفرض نفسه ، أقرب إلى الدردشة أو الثرثرة . نمضى إلى طرق لا نختارها ..

شحبت صورة مها ، ذوت ، تلاشت . لم يعد إلا صورة زوينة تلازمنى . الملامح الطفولية تفرض نفسها ، الإيماءات والتصرفات والبسمة التى كأنما ألصقتها على شفثيها . أتصور كلامًا بينى وبينها ، أسئلة وأجوبة ، وأخذ ورد ، ورواية ما صادفه كل منا فى يومه ..

سألت بعفوية :

- لماذا صحبتنى من المطار ؟

قالت بسرعة كأنها تتوقع السؤال :

— بدوت مسكينًا وبلا حيلة ..

قفزت إلى ذهني — لا أدري لماذا — صورة بطل
روايتي التي لم أتمها . بدا وحيداً ، ومحاصراً . أزمعت أن
أوفر وقتاً — وسط انشغالي — أستكمل فيه روايتي الناقصة

..

لم أعد أقوم من مكاني وراء المكتب ، عندما تدفع
ضلفة الباب الخارجى ، وأتبين وقع قدميها فوق الساحة
الترابية . تقول : سلام — من باب الحجرة — وهى تتبين —
بنظرة متأملة — ما أفعله . تميل إلى المطبخ ، فتأخذ بعض
ما تحتاجه من الأرفف . أدرك أنها تمضى إلى الناحية
المقابلة من تنهى صوتها : سلام ، وصرير مواربتها لضلفة
الباب ..

كنت أعزى نفسى — أمام شوقى كمال — بأنه رفيق
غربة ، رفيق سفر . تصل علاقتنا إلى نهايتها عندما تهبط
الطائرة فى المطار ..

قالت :

— لاحظت أن الباب ظل مغلقاً إلى ما بعد المغرب ..
وأنا أتظاهر بترتيب الأوراق فوق المكتب :

- أمضيت اليوم كله فى مركز الشئون الاجتماعية ..
وتنبهت لذبابة على أنفى . ذببتها بيدي ، وأردفت :
- كنز من المعلومات سأختار منه ما ترضى عنه
الرقابة ..

وداخلنى إحساس بالمحصرة :
- أخفقت - حتى الآن - فى كتابة تحقيق صحفى ..
ومططت شفتى فى ضيق :
- أصطدم بالفشل دائما- ..

__ لماذا ؟

تحدثت عن جائزة التفوق التى صدر بها مرسوم
سلطانى . يحصل عليها من يحقق تفوقاً فى مجالات الدراسة
والبطولات الرياضية .. أزمعت أن يكون المرسوم السلطانى
محوراً لأول تحقيق تقدمه الجريدة . صحبنى خميس المناعى
إلى النادى الأهلى خارج مسقط القديمة . ساعدنى المناعى
فى محاولة إقناعهم بأن يتحدثوا عن رأيهم فى المرسوم .
لابد أن يكون - بالضرورة - رأياً إيجابياً . لكننى
اصطدمت بحائط الاعتذار : هذه سياسة ، ولا شأن لنا بها !
قال خميس المناعى :

— لم ينس العمانيون نوبة الميراني ، وأوامر السلطان
سعيد التي حرمتهم حتى من ارتداء الأحذية ..
قلت :

- وكيف أصنع صحافة ؟
— اتبع سياسة الخطوة خطوة ..
— أخشى أن أظل محلك سر !
قالت زويينة :

— أنت رأيت أزقة مسقط القديمة ؟..
— طبعا- ..

— هذه هي زنجبار .. البيوت القديمة المتلاصقة
والشوارع القديمة والدشداشة والكمة والقلاع .. حتى الأبواب
تذكرك بأبواب مسقط ..
مدت يدها بلغة صغيرة من الورق :
— خذ هذه ..

دهمني ارتباك حين فاجأت نظرتي المتسللة . كنت
أتأمل شرودها فيما لا أتبينه ..
— ماذا ؟..
— عشاء خفيف ..

وأنا أربت صدري :

— تعشيت ..

— أخی سیف .. سمع عم حمود صاحب السوبر

ماركيت وهو يعتذر بعدم وجود ما طلبته ..

غمرنى إحساس بالنشوة أن أجد من يعنى بأمرى .

فطنت أنى - ربما للمرة الأولى - أرنو إلى منبت النهدين .

داهمنى ارتباك ، فأدرت وجهى إلى الناحية المقابلة ..

أضافت كالمذكرة :

- كنت الابنة الوحيدة ثلاثة عشر عاما- .. ثم جاء سيف

.. ولدته أمى بعد عامين من قدومنا إلى مسقط ..

واتسعت ابتسامتها :

— قال أبى إنها غلطة .. وأعتبرها غلطة جميلة ، فأنا

أحبه !..

ثم وهى تغمز بعينها :

- لعلهما أرادا تأكيد انتمائهما إلى الوطن الجديد ..

قلت :

— بدا السوبر ماركيت — هذه الليلة — شبه خال ..

وهى تضحك :

— رجال الفرق الوطنية نزلوا على المحال .. قالوا :
نحن خدم السلطان .. وأخذوا ما وصلت إليه أيديهم ومضوا
..

اعتدت رؤية الفرق الوطنية فى شوارع روى ومطرح
. عشرات من الرجال ، عراة الصدور . يرتدون الوزارات
المزركشة الألوان من الخصر إلى ما تحت الركبة . يحملون
البنادق والسيوف الصغيرة والخناجر والعصى . ينشدون
أغنيات ، فسرت غموض كلماتها بأنها من الشعر النبوى .
قال لى الشيخ النبهانى إنهم من الخارجين عن جبهة تحرير
ظفار . أعلنوا استسلامهم ، وتحولوا - بعفو السلطان وهباته
— إلى أهم المساندين للحكم فى ظفار ، أو المنطقة الجنوبية
..

كنت أتأمل جرأتها : الطرقات الخافتة ، ودخولها البيت ،
ونزع حذائها ، وتنقلها بين حجرة المكتب والمطبخ والحمام
. تبدو تصرفاتها غريبة فى مجتمع الرجال الذى تنتمى إليه ،
وإن لم يعد فى وسعى أن أتصور عناقها . الحائط غير
المرئى الذى تقف خلفه ، يفصل بيننا ، والبساطة التى تتحرك-
وتتكلم - بها ، تلغى ما قد يثور فى داخلى من تصورات

. يداخلى اليأس حين أطيل النظر فى عينيها ، فتأتى
الاستجابة كما فى عين السمكة ..
تعثرت فى وقفها على السلم ، وهى تجرى بالمنفضة
على الكتب . احتضنت ساقىها بتلقائية . مالت على كتفى
حتى نزلت إلى الأرض . غالبت الارتباك ، وأنا ألمح الحمرة
فى خدّها ، وهى تميل بوجهها إلى الناحية المقابلة ..
لم يكن بوسعى أن أخمن ماذا تخفى ابتسامتها الطفلة
وعيناها الملتمعتان . لا أعرف ماذا يمور فى داخلها . كانت
رؤيتى لها تتعدد فى اللحظة الواحدة . تهبنى شعورا- بالسهولة
، فأتصورها ثمرة تلامس أطراف أصابعى . تحدثنى فى ود
طيب ، فأبتسم لصور من قعدأتى مع أمى وأخوتى ، وتومض
عيناها بما يصعب على فهمه أو تفسيره . أدرك أنى أجلس
إلى فتاة من مجتمع يمارس حياة غير التى ألفتها . كنت أعود
فى اختلاط اللحظات ، وتشابكها ، إلى الحدة التى واجهت بها
خطأ فهمى . يهمنى ألا تغيب ثانية ، وربما ذهبت فلا تعود .
تعيد ترتيب ما أتعمد إفساده . تفاجئنى بالسؤال عن أشياء
تخصنى ، ولا أتصور أنها لاحظتها : الكلمات الناقصة فى
ورقة فوق المكتب ، الكتاب الذى طويت آخر صفحة قرأتها

فيه ، إيصال مغسلة الثياب ، تأخر المطبعة فى طباعة
الجريدة . تفاجئنى بأسئلة عما أتصوره بلا قيمة وتافها- . يبدو
عليها التأثير وهى تنصت إلى ملاحظاتي . تخلع حذاءها .
تتريع على الكنية قبالة المكتب . تضع ذقنها فى يدها ، أو
تداعب بيدها أصابع قدميها ، وتتكلم . تشرق وتغرب . تسأل
، أو تنصت . تقاطع أجوبتي . تعبر بلامح وجهها وحركات
يديها . ربما وقفت على رأسى وأنا أكتب ، أو أخطط ،
صفحات الجريدة ، أو ألصق الأعمدة والصور . يلامس
ذراعها يدي . صارحتنى باستيائها من النظرة المتعالية التى
يواجهها بها العمانيون من مواليد الوطن الأم ، كأنها
الاستهانة أو الاحتقار . نحن أتينا من زنجبار ، فنحن زنوج
، والزنوج - لا أدرى سر هذه النظرة - جنس أدنى !
فاجأنى تغير سحتتها لما أشرت إلى ظاهرة الخدم
الآسيويين :

— أنت تلمح إلى ما يعيب ..

— أتكلم عن ظاهرة سلبية ..

— الخدم موجودون فى كل الدنيا .. لماذا يتحولون هنا

إلى ظاهرة سلبية؟! ..

رحت أتأمل الوجه الملائكى ، والملامح الطفولية ،
والعينين الواسعتين ، البريئتين . تمنيت لو أنى احتضنتها ،
ودسست رأسها فى صدرى . أهمس ، وأصرخ ، بأنها
الواحة التى ظللتنى فى هجير شمس مسقط ..
أزعمت أن يكون ذلك كذلك . لا أقرأ ما بين السطور ، ولا
أحاول فتح الحجرة الواحدة والأربعين ، ولا أجهد نفسى
فى التطلع إلى ما وراء الأفق ..

توالت الأسئلة : هل أحبها بالفعل ؟ أو أن ما أحسه
نحوها مجرد رغبة تريد البوح ؟ هل الشعور بالوحدة هو
الذى أملى الإحساس بأنها تحبنى ، وأنى أحبها ؟ هل تشغل
فى حياتى موضع مها ؟ وهل تنتهى علاقتى بها بعودة
علاقتى بمها إلى ما كانت عليه ؟

لم أصل إلى أجوبة محددة ، وإن أيقنت أن هذه الفتاة
السمراء ، الطفلة الملامح والتصرفات ، هى فتاتى التى أحبها
. أتأهب للنوم . أغمض عيني على صورتها . تطالعتنى فى
رؤى متغيرة حتى أصحو . هى أول من أفتح عيني عليه ..
أفكر فى أن أشغل نفسى بأمى وأبى وأخوتى ومها ،
وما خلفته من عمل فى القاهرة . ما تلبث الصور التى

استدعيته أن تذوى ، تتلاشى . تحل - بدلا- منها - صورة
زوية ، تتحرك ، تتكلم ، تضحك ، تسأل ، تملأ مساحة
الذهن فلا يملأها سواها ..

كانت المناقشات تستغرقنا ، لا تترك فرصة كى يبوح
أحدنا بمشاعره نحو الآخر . ألمح نظرات عينيها . أخمن ما
تحملانه ، وكنت أفر بعيني منهما . صرت على ثقة أن
الطريق مسدودة . شئ فى ملامحها البريئة يصدنى عن التقدم
فى خطوة غير محسوبة . تشواش إحساسى بالوحدة . لم يعد
بمثل القسوة التى ألمتنى كثيرًا ، لكننى ظللت وحيدًا ..

لحظات الوحدة كثيرة ، ومتواصلة ، لكننى لا أشعر
بالعزلة . لا أشعر بالوحدة التى أحيها . ترافقنى صورة
زوية وتعبيراتها وإيماءاتها وتصرفاتها العفوية . ربما
أكتشف البسمة تطفر على شفتى بالموقف الذى أستعيده ..

هذه هى واحتى الظليلة . لا صلة لها بما أحياه فى
القاهرة أو مسقط . لا صلة لها بشخصيات أعرفها ، أو ألتقى
بها ..

أنا لا أتصور الحياة بدونها ..

— الأستاذ بهجت حسان ..

تعرف الحارس إلى ملامحى . فتح الباب الموارب .
قبل أن يعبر السائق دوار الخوير ، طلبت أن يميل إلى مبنى
السفارة المصرية . تأملت الأوراق والصور التى سلمها لى
عبد الحميد سعيد وكيل وزارة الإعلام : رجال يرتدون
الدشداشة والمسرة ، لا يفترقون عنم ألتقى بهم فى أسواق
روى ومطرح وشوارع المدينة . حتى النظرات تشى بطيبة
واضحة . وضعت الأوراق فى تابلوه السيارة ، ونزلت ..

— انشر هذه الصور فى الصفحة الأولى من جريدتك..

أضاف عبد الحميد للتساؤل فى عيني :

— أكتب بما يعنى أنهم متمردون فى ظفار سلموا

أنفسهم لقوات السلطان ..

— ألا توجد معلومات ؟

— أى معلومات تعد أسراراً عسكرية ..

ونفض دخان سيجارته على طقطوقة أمامه ، وقال :
- يكفى أن تشير إلى أنهم متمردون سلاموا أنفسهم !
كنت فى حاجة إلى أصدقاء . إلى من ينصت إلى ^{أنا} ،
وأستمع إليه . كان أغلب وقته فى مبنى السفارة . وكان سكنه
فى داخل أسوار المبنى . أتردد عليه فى مبنى السفارة ، فأجد
فيه من أناقشه . يضايقنى - بعد أن أشاهد فيلمًا فى سينما
ستار ، أو عمان بلازا ، أو أقرأ كتابًا ، أو أتابع برنامجًا فى
التليفزيون ، أنى لم أكن أجد من أحدثه فيما شاهدته أو قرأته
. من يبادلنى الملاحظات والتعليقات ، ويبدى الإعجاب أو
الرفض . الفراغ بلا آفاق . أدركت كم أنا وحيد . لا أتصور
أن أحداً يعانى الوحدة مثلما أعانى . وكنت أعطيه أذنى ،
فيتكلم ويتكلم . أكتفى بالإنصات . ربما تظاهرت أنى أنصت
. أهرب من الحنين والوحدة والملل فى حكاياته التى لا
تنتهى..

كان يقبل الملفات فوق مكتبه . أسماء وعناوين وبيانات
وأرقام . يرافق التقليب نبرة ساخطة ، تعيب اتسام سفر
المصريين للعمل فى الخليج بالعشوائية . تشوشت الظاهرة ،

فغابت صورة المستقبل . يسافر الباحث عن فرصة العمل
لأربع سنوات . تطيب له الإقامة ، فتواصل السنوات ..
— إنهم يضيفون إلى أنفسهم فرص الآخرين ، يستولون
عليها !..

ويشى صوته بضيق :
— تضخمت مشكلات المصريين فى مسقط ، فكاد
عملى يقتصر على المهام الاجتماعية !..
ثم وهو يتطلع - من النافذة - إلى الصحراء الممتدة :
— السفارة الآن صالة ترانزيت !

حكى لى عن وكيل الوزارة المصرى المعار للسلطنة .
مهمته جمع التراث الشعبى من الموسيقى والأغنيات . لكن
الراتب الضخم دفعه إلى محاولة البقاء فى السلطنة ، فهو
يعزف على العود فى أثناء تناول وزير الإعلام عشاءه مع
ضيوفه ، وقاطع مذبح التليفزيون حين رحب به فى عمان
وطنه الثانى قائلا- : أرجوك .. إنها وطنى الأول !..

قال بهجت حسان :

- الظروف الاقتصادية لا شأن لها بمأساة الرجل ..
إنها مأساة النفوس الضعيفة ..

ونفث تنهيدة :

— أمس .. طلبت من رئيس بعثة المدرسين المصريين
أن يغادر مكنتى .. وصف وظيفته بأنها الإشراف على ثلاثة
آلاف كلب .. يقصد ثلاثة آلاف مدرس! ..

وكز على أسنانه :

— يريد الحصول على إعجاب العمانيين بثتم أبناء
بلده..

وأعاد تصفح الجريدة :

— أنت لا تتحدث فى السياسة ، لكنك تكتب فيها ..

قلت :

— أكتب فى السياسة الخارجية والعربية ، ولا شأن لى
بالسياسة المحلية ..

واجهنى بنظرة دهشة :

— هذه جريدة عمانية ..

ثم وهو يعقد ساعديه على صدره :

— فكرت فى أن أزودك ببعض التحليلات السياسية ..

لكننى أشفقت على قراء جريدتك ..

ووشت لهجته بممل :

— أثق أنهم لا يريدون سوى الأخبار الصغيرة
والطريفة ، وإن أمكن فالصور الملونة ..
لاحظت أنه يداوم النظر إلى مرآة معلقة على الجدار
بجانب المكتب . يتأمل ملامحه ، ويتأكد من استواء شاربه .
أميل إلى البدانة . تطل الطيبة من عينيه الساجيتين ، فيبدو -
أحيانا- كالنائم ، وحاجباه الكثيفان متصلان من أعلى الأنف
وتصرفاته ، وعباراته ، أميل إلى البطاء ..
قلت :

- الألوان مطلب مستحيل فى ضوء الظروف الحالية ..
- جريدتك ينقصها الصورة ..

أضاف لنظرتى المتسائلة :

— الصورة — كما تعلم — عنصر مهم فى المادة
الصحفية ..

وهز سبابته :

— المتقفون هنا لن يقرأوا جريدتك .. عندهم الصحف
العربية والأجنبية ..

قلت :

- أعترف أنه تعوزنى الإمكانيات ..

قال بلهجة محرصة :

- قص والصق .. افعل مثل الآخرين ..

- هذا ما أفعله أحيانا- ..

استطردت متذكرا- :

- قص الصور وليس الموضوعات ..

ظهرت الخيبة فى وجهه :

- ألا يوجد لديك أرشيف صور ..

قلت :

- ولا أرشيف معلومات ..

وجاهدت كى أكتم ما يمور فى نفسى من ضيق :

- لا يوجد أى شئ لصنع جريدة .. إلا جهاز راديو

قديم ..

- وكيف تتصرف ؟..

ضاحكا- :

- بالبركة ..

واستطردت موضحا- :

- أستعين بكتابات أصدقاء من القاهرة .. وأنقل من

الراديو .. وأخترع !..

مصمص شفتيه :

— مشكلة أن تصدر إعلام القرن العشرين فى
مجتمعات القرون الوسطى ..

تحدث الشيخ حمود النبهانى عن مشروعات للتوسع فى
شركة صحار للمقاولات . صدر القرار بإزالة بيته المطل
على مقابر المتاعيب ، والمفضى إلى قصر العلم . أظهر
الفرحة للتعويض المادى الذى سيحصل عليه : يتيح لى بيتًا
جديدًا فى القرم ، وفائضًا أنفقه على توسعة الشركة ..
كنت قد زرت بيته : درجات من الأسمنت ، تفضى إلى فناء
بلا سقف ، إلى اليمين - بجوار الباب - حجرة يستقبل
فيها زواره ، ثمة كنبتان ملتصقتان فى زاويتي الحجرة ،
يقابلهما جهاز تليفزيون ، وعلى الأرض سجاد وشلت ،
وهسيس المروحة الكهربائية أعلى السقف . فى نهاية الفناء
المبلط بناية صغيرة من طابقيين أغلق بابها الخارجى ، ولا
تبين نوافذها العلوية المفتوحة عما بالداخل ، حدست أنها
لإقامة أسرة الشيخ وإلى اليمين دورة مياه . فاجأتى - لما
استأذنت فى استخدامها - باقترابها من دورات المياه فى
بيوت القرية المصرية ..

– هل يمكن دعم الجريدة وتوزيعها خارج السلطنة ؟
فى استغراب :

- نحن نوزع خارج البلاد فعلا- ..

– ما أعرفه أنها لا تباع فى القاهرة ولا بيروت ولا
بغداد .. ولا العواصم العربية الأخرى ..

- إنها تصل إلى حيث شركات الإعلان فى دى ..
ثم فى حسم :

– هذا يكفى !

فاجأنى بهجت حسان بالقول :

– أعانى مشكلة سخيفة ..

وحدجنى بنظرة طويلة كأنه يتأمل وقع كلامه :

– المدام ترفض ما أحله الله ..

أضاف للدهشة فى عيني :

– ترى أننا قد أنجبنا الأولاد ، فلا حاجة بنا إلى

الجنس..

اكتفيت بالمتابعة والصمت : يكلمها عن الجنس . هو

مثل الطعام والنوم ، وما يحتاجه الإنسان من ضروريات .

تهز رأسها ، وتقلب شفتها السفلى ، وتسكت ، لا تعلق
بملاحظة ولا تبدى استجابة ..

قلت لمجرد أن أقول شيئاً :

– تذكرنى بدراسة فى مركز الشئون الاجتماعية ،
أشارت إلى طلب عمانى فى بركاء من خبراء المركز أن
يقنعوا زوجته بتلبية طلباته ..

انتزع ضحكة :

– لعل الرجل يطلب ما يؤذى مشاعر زوجته .. أما أنا
.. الحمد لله !
وسكت .

فضضت الرسالة بيد مرتعشة . أعرف صاحبة الخط .
هل أملاها الذهن ، أو أنها نقلت ما أملتة أمها ؟ ..
ذكرتنى الكلمات بما تعمدت إهماله . تناسيته ، فنسيته

..

قالت الأم :

– مها لن تترك مصر ..
– لن نقضى سوى عامين .. نرتب حياتنا ونعود ..

دون أن تجاوز هدوءها :

—مها تنتظرك ..

— ما قيمة الزواج إذن؟ ..

هل وجدت في ^ك مجرد زوج ، أو أنها تحبني؟ .. إذا كانت تحبني بالفعل ، فلماذا هذا الموقف الساكن الذى يصعب أن أفسره؟ لماذا لا ترفض ، تنمرّد ، تصرخ ، تملئ إرادتها؟. لو أنها كانت تحبني حقاً لأصرت على حبها ، على اختيارها !.

هل ما يقوله عبد العال صحيح؟ .. هل كل الرسائل تفتح فى الأيام الأولى لإقامة الوافد؟ .. وكيف تفتن الرقابة إلى أن الرسالة لوافد قديم أو حديث عهد بالإقامة؟ .. لكن الرجل ألح فى التحذير ، وأن كل ما يرسله الوافد ، أو يتلقاه ، لابد أن تتأمله عين مدققة ..

— أنا لا أتحدث إلاّ عن أحوالى الشخصية .. وهو ما

تنقله الرسائل القادمة من القاهرة ..

— فليكن هذا حرصك .. ولو لبضعة أشهر قادمة ..

هزرت رأسى بالموافقة ، وإن ظللت غير مصدق

لملاحظاته . وتيقنت من عدم تصديقى — فيما بعد — حين

اتسعت مصادرى وعلاقاتى بحكم العمل ، فالرقيب لا يفض
إلاّ الرسالة التى يشك فيها . وإذا فضّلها ، فإنه يلصق عليها
ورقة تغيد بما فعله ..

— هل الأوضاع مقيدة إلى هذا الحد؟..

— وأكثر ..

ورفع عينيه فى تناقل :

— إنهم يا دوب تخلصوا من الثورة فى ظفار ،

ويضعون حساباً لكل الاحتمالات ..

لم يعد لى مواعيد نوم محددة ، إنما هى أوقات متقطعة ، أسلم فيها عيني للنوم . أستعيد _ فى انشغالى بإعداد الجريدة - ملامحها ، نبرات صوتها ، تصرفاتها وإيماءاتها . أتخيل مواقف وحوارات بينى وبينها . بمجرد أن يلمس رأسى المخدة ، يسلمنى الإرهاق إلى نوم ثقيل ..

أفرش على السرير ملاءة وحيدة ، فلا غطاء لجسدى . إذا أقبل الشتاء ربما تغطيت بملاءة ثانية . لا بطاطين ، ولا ألحفة ، إنما هى ملاءة رقيقة من القطن ..

أصحو فأقوم إلى العمل ، لا أتدبر ما إذا كنت أحتاج إلى استكمال نومى . ربما تبينت _ وأنا أبدل ملابسى فى الصباح _ أن السرير على حاله ، لم أقربه لأنى قضيت الليل فى إعداد مواد عدد قادم . همى أن أدخل الحجره الملاصقة . أتأمل الفراغ الذى جسده تكرر النوم فى الموضع نفسه على السرير . ألقى بجسمى المتعب فوق

السرير . يحل على تعب يوم كامل من القراءة والكتابة ونقل نشرات الإذاعة والتنقل بين الوزارات بحثاً عن الأخبار . أتصور أنى سأروح فى النوم يوماً كاملاً ، أو يومين . أشرد فى تمددى حتى يغيبنى النوم . لا أتحرك حتى أصحو . أتكاسل عن تغيير الملاة . أرتدى الملابس الصيفية وحدها . البنطلون دائماً . يعلوه قميص ، أو فانلة قطنية ، وربما فانلة " مونتجوت " يقبل على شرائها معظم الوافدين ..

قال شوقى كمال :

— لا تحبها ..

واتجه ناحيتى بملاح مستغربة :

— نحن لم نأت إلى هنا للسياحة . حتى السياحة

ممنوعة ..

ثم وهو يطرقع بإصبعيه :

— جئنا فقط لصداقة الريال العمانى !

شوقى كمال سبقنى فى الوصول إلى مسقط . عاصر البدايات . ملاً استمارة الدخول إلى مسقط ، فى مطار تحده البراميل الفارغة ، الشوارع الترابية والبنيات ذات النسق العمانى ، الحمار وسيلة مواصلات شبه وحيدة ، انعدام

وسائل الإعلام ، لا صحف ولا إذاعة ولا تليفزيون . تابع ما حدث خطوة خطوة . حتى القصة القصيرة كتبها صحفى مصرى ، وإن أطلق على الأماكن والشخصيات تسميات عربية ..

عرفت من شوقى أن إصدار الجريدة نشاط تجارى يمارسه الشيخ النبهانى ، إلى جانب الاستيراد والمقالات . ينفق على الجريدة من دعم وزارة الإعلام واشتراكات الوزارات . توزع على الموظفين دون مقابل . تكاليف الجريدة أقل من قيمة الدعم ، فهى - فى حساب الشيخ النبهانى - صفقة رابحة .

قلت :

- سأزيد من توزيع الجريدة بإضافة موارد الإعلانات إلى دعم الدولة ..

قال شوقى كمال فى نبذة حاسمة :

- وهم أن تتطلع إلى إصدار جريدة حقيقية ..

ولجأ إلى عينيه ويديه فى التعبير عما يريد أن يقوله :

- لا تنس رغبة الرجل فى المكانة الاجتماعية

والوجاهة ..

وغمز بعينه :

— هذا هو ما تحققه له ملكية الجريدة ..

قلت :

— لكنه لا يتدخل فى تحريرها ..

استطردت موضحاً :

— يعنى يضع خبراً أو يحذف خبراً ..

رفع كتفيه فى استخفاف :

— كفيك لا شأن له إلا بما يحصل عليه من المكاسب

المادية والاجتماعية ..

قبل أن تبدأ طباعة الجريدة فى مسقط ، كان عملى يقتصر على إعداد المواد ، وإرسالها — بالبريد السريع — إلى المطبعة فى الكويت ، ثم أنتظر — بعد أسبوع — وصول النسخ المطبوعة . امتد العمل ساعات اليوم كله . لا إمكانات حقيقية ، والعمال يخطنون تسع مرات قبل أن ينفذوا تصورى فى المرة العاشرة . هنود وباكستانيون عينوا لرواتبهم القليلة .. مصريون تعاملوا مع " التيبو " و " الروتوغرافور " فبدأوا تعلم الأوفست بافتراض الصواب والخطأ . كان يومى يمتد — أحياناً — من السابعة صباح الأحد — اليوم السابق لصدور

الجريدة - إلى منتصف نهار يوم الإصدار . أجرد قمتى إلى
السيارة وأنا أرجو غياب ما نبهت إليه من أخطاء ..
كان الإحباط يمضى ..
قال شوقى كمال :
- نحن لم نأت لأداء رسالة ، وإنما للحصول على
نقود..

ثم وهو يطرقع إصبعيه :
- المهم أن نحصل على النقود .. لا يهم الوسيلة ، ولا
معنى لأن تتعب نفسك فيما لا يستحق !..
قلت :
- جننا لإصدار صحف ..
أشاح بيده :
- لن نصدر " الأوبزرفر " .. ولكن نشرات نسميها
صحفاً ..

وأنا أضغط على الكلمات :
- أصر أن أصدر صحيفة .. جريدة !..
- من حقك أن تحلم .. ومن حقى أن أكون واقعيًا ..
وصرخ :

– هل تتصور أنك ستصدر جريدة حقيقية بمفردك؟!..
يقتحمنى – فى لحظات العمل الأخيرة – نوع من
الهمود ، يتسلل إلى جسمى فيسيطر على تصرفاتى .
الحركات بطيئة ، والكلمات متناقلة ، متعثرة ، والعينان
ساجيتان تغالبان النوم . ألجأ إلى القوة الثانية . قرأت عنها ،
فلجأت إليها . أغمض عيني ، وأسلم جسمى لاسترخاء ،
دقيقتين أو ثلاثا- . تأتى القوة الثانية . أنهى بها إعداد المواد ،
وأرتمى على السرير لأعوض نفاذ القوتين!..

المعاناة الحقيقية فى انقطاع التيار الكهربى . تصمت
المكيفات ، وتحل سخونة لزجة ، قاسية ، يصعب معها
التنفس ..

تيقنت من أن شوقى كمال يعانى عدم الوفاق ، حين
حرك جريدة مطوية أمام وجهه ، وقال فى أسى واضح :

- لو أن المقيمين فى مصر يعلمون بما نعانى !
كان يظهر كراهيته لسلاسل الجبال المتلاصقة ،
ورائحة الكارى المنبعثة من أجساد الهنود ، وتناول الأرز ،
وتقطيع الدجاج واللحم ، بالأيدى ، يسيل منها السمن أو
الدهن ، ترفع الأكمام حتى لا تتسخ ، وتمتلى الأشداق ،

ويتواصل الكلام ، وليد اللحظة والتذكر . وكان دائم الحديث
عن شوقه إلى قعدة المصطبة ، والملوخية ، والمحشى ،
والرز المعمر ، والتمشى على شاطئ الرياح ، أو على
الزراعية ، والتردد على أماكن اللقاءات ، والسهر فى المدن
البعيدة . يتخلل كلماته ما يستعصى على الفهم . هذا الحزن
الذى يبلغ حد اليأس .

هذه الفتاة ، استأثرت باهتمامى كله . أبعدتنى عن الشوق إلى القاهرة ، وتعب العمل فى مسقط . شحبت _ فى وجودها _ كل الملامح التى كنت أراها فى الآفاق من حولى..

كنت أغالب شعورا- بأنى أنجذب إليها بما لا أستطيع مغالبتة . قوة غريبة ، غامضة ، لا أدركها ، ولا أفهم بواعثها . ألخص لها آخر كتاب قرأته . أناقشها فى الأفكار التى يتناولها ، أو أروى ما تستدعيه الذاكرة ..

لم يكن يشغلنى إلا لقاءها ، والجلوس إليها ، وتبادل الكلام . أحدثها عن نفسى ، وتحدثنى عن نفسها . أحدثها عن الجريدة وزحام القاهرة والبيت المطل على شارع المساحة ، وتحدثنى عن الحياة التى لم تتغير بالانتقال من زنجبار إلى مسقط . الشوارع الضيقة ، والنوافذ التى تكفى القفزة للانتقال

بينها ، والمصاطب أمام الدكاكين ، وضوء الشمس الغائب ،
والأرض الترابية ، وأذان الصلوات الخمس ..

بدت لى زنجبار - من كلامها - أجمل بلاد الدنيا .
يتلون صوتها وهى تحدثنى عن الغابات والسهول والجبال
والبحر وأشجار القرنفل والنارجيل والمانجو ، وغيرها من
الأشجار الاستوائية . تتابع الطائر فى تحليقه فوق الساحل : "
هذا الطائر نفسه .. كنت أراه على شاطئ البحر فى زنجبار
" . تستعيد فى رؤيتها للأحياء والخلاء والقلاع والطوابى
أسماء : ممباسة ، سيوى ، باتى ، مالندى ، كيبوندا ،
كيجيتشى ، متولينى ، أوشوكونى ، ريو نيون ، كيزيمبانى ،
الجزيرة الخضراء ، دونجا ، لاموه ، وأسماء مدن وقرى
تنقلت بينها . حتى صوت ارتطام الأمواج بصخور الشاطئ
فى الوادى الكبير ، أو فى مطرح ، أو خلف فندق مسقط إنتر
كوتنينتال ، تستعيد به الصوت الذى اعتادت سماعه فى
اقترابها من شاطئ زنجبار . تقلب جوزة الهند فى يدها : فى
زنجبار أكبر وأحلى .. تغمض عينيها : أحب رائحة القرنفل
لأنه يذكرنى بزنجبار .. تعايشنا مع الأفارقة فى زنجبار ،

ويتعايش معنا الآسيويون فى عمان .. وقانا الله شر المستقبل

..

— ألم يكن فى زنجبار آسيويون ؟ ألم يرافقكم الهنود ..

وهى تنتزع ضحكة :

— حتى أوائل الهنود الذين استوطنوا زنجبار كانوا من

الطوائف نفسها التى تعيش فى مسقط والمدن العمانية :

البهرة من الشيعة أو السنة الشافعية ، والخوجة من

الإسماعيلية الشيعة أو السنة الشافعية ، والهندوس ..

وسوت الإيشارب حول رأسها :

- هذه هى الطوائف المهمة فى زنجبار ، وفى عمان..

حدست أنها تتوقع منى كلاماً عن مها . سرت فى حقل

الألغام ، بما لا يقوض زاوية فى المثلث . وكنت إذا خلوت

إلى نفسى ، أستعيد الكلمات والإيماءات والتصرفات . أشرد

، وأبتسم ، وأتأمل ، وأبدل ، وأتصور ما يجب أن أقوله فى

لقائنا التالى ..

تصورت أنى أفهم ما يعتمل فى نفسها من عاطفة

نحوى . تمنيت لو أنها أدركت ما يعتمل فى نفسى من عاطفة

أنا أيضاً . أشعر أنها قريبة منى . وأنها تبادلنى الشعور نفسه

. بدا كأننا نرضخ لقوة مسيطرة ، لا قبل لأى منا على دفعها ، أو الفرار منها . أرى حبيها فى تلك الومضة التى كنت ألمحها - أحيانا- - فى عينيها . تظهر فى لحظة ، وتختفى فى اللحظة نفسها . أقرر أن أصارحها : أنا أحبك ، وأعرف أنك تحبيننى ، فلماذا لا يصارح كل منا الآخر بحبه ؟.. أهمل رد الفعل . هل تستجيب ، أو أنها تتبعد ، فلا تعود ثانية ..

هل أحبها لأنى ألوذ بها من الغربة ؟ هل لأن الأم فى بيت الفجالة قيدتنى بما دفعنى إلى طلب الخلاص ؟ هل لأن البراءة والعفوية والنصيحة اجتذبتنى إليها ، فأحببتها ؟ هذه الفتاة هى الوحيدة التى أحببتها ، وهى الوحيدة التى أحبتنى . أرى الحب فى عينيها ، ولا بد أنها رأت حبى لها فى عيني . لم تقل لى : أحبك . لم أقل لها : أحبك . لو أنها اعترفت لى بحبها . لو أنى صارحتها كم أحبك . أدركت أنه إما أن أصارحها ، وأتوقع مصارحتها : أنا أحبك .. وأنا أحبك ، وإما أن ألوذ بالبيت ذى الأسوار ، فلا نلتقى . أرتب الكلمات . أتصور رد الفعل . ما أكاد أخلو إليها ، وأحاول وضع الكلمات على فمى ، حتى تذوى الكلمات ، وتضيع .

أستعيد الموقف القديم . غاب تدبر اللحظة التالية . أنظر إليها ،
وتنظر إلى . نكتفى بسكون اللحظة . لا يشغلنى ما هو أبعد
من ذلك ..

لست أذكر مناسبة قولها :

— نحن نحيا فى مجتمع له تقاليده ..

ومضت الفرصة :

— أنت تختلطين بالرجال فى العمل ..

وهى تضغط على الحروف :

— فى العمل !..

وكست وجهها قناعاً من الجدية :

— أثق أنه يمكن أن تقوم صداقة بين فتاة وشاب ..

وتعمدت أن يكون صوتها باتراً ، ربما لتنتهى النقاش :

— شريطة أن يعرف كل منهما حدوده ..

كانت الصالة الطويلة بفندق الخليج قد خلت إلاّ من

شاب وفتاة ملامحهما أوروبية . أطلت الكلام فيما وفد إلى

خاطرى . مجرد أن أكلّمها ، وأظل بالقرب منها . أتأملها فى

صمت ، أملاً عينى من ملامحها . يملؤنى إحساس بأن العالم

قد خلا من البشر ، وأنه أصبح لنا وحدنا . أنا أحبها ، وهى

تحبنى . أثق فى ذلك جيدا . تنقصنا المكاشفة وحدها . البوح
والاعتراف والفضفضة . أنا أحبك . وأنا كذلك !!
قلت ، لأبدل الكلام :

- كل شئ هادئ هنا .. فلماذا المهدئات ؟..

تبييت - فى اللحظة التالية - أنى لم أحسن التعبير ..
لم بيد أنها تلحظ الحشرات الطائرة المتحلقة حول اللمبة
الوحيدة . أسلمت نفسها لشروود ولحظات تذكر ، عزلتها عن
كل ما حولها . لم يعد أمامى إلا أن أظل فى جلستى ، أنفض
الحشرات إذا التصقت بوجهى ، وأصيح السمع ..

كانت الليلة الشتوية فى بدايتها يوم السبت ١١ يناير
٢٦٩١ حين حدث ما حدث . انطلقت دقات الرصاص من
موضع قريب . دستت نفسى فى صدر أمدى . أصاحت
السمع وربتت رأسى :

- لعلمهم يقتلون الكلاب !..

تعالت أصوات إطلاق الرصاص ، وتلاحقت ، وترامت
أصوات اصطفاق أبواب تتحطم ، واستغاثات وصراخ .
انتفضت على طرقات هائلة ، يشغلها تحطيم الباب لا مجرد

الطرق عليه . أحنت أمى جسدها بعفوية ، ووضعت رأسها بين يديها . ثم قفزت إلى ركن الحجره وجريت وراءها . التقطت أمى شالا- من على الشماعة إلى جانب باب الحجره لغت به عنقها . تعالت صرخة . ومدت يدها إلى مزلاج الباب ..

تدافع العشرات من الجنود السود . بيدهم بنادق ومسدسات وخناجر وعصى ، وعيونهم تلمع ببريق اقتحمنى بالخوف . أدركت - فيما بعد - أن ارتفاع أصواتهم إلى حد الصراخ ، كان لبث الفرع ، ودفعنا إلى الفرار ..

انشغلوا بنهب كل ما فى البيت ، فأتاحوا لنا الفرار . تعلقت برقبة أمى . خرجنا بملابس النوم ، وحقاة ، والخوف يجرى بأقدامنا ناحية البحر . ألقى الجميع ما حملوه من داخل البيوت وهم يتركونها ..

لم أكن أفهم ما يحدث ، وإن أدركت أن شيئاً فظيعاً يجرى حولنا ، وأن الفرع فى عيني أمى وهى تجرى بأخر ما فى قوتها ، لم أره من قبل . قبل أن تذوب أمى فى الموجات البشرية . آلاف من الناس أعرف بعضهم ، ولا أعرف معظمهم ، يجرون - بالفرع - ناحية الشاطئ . كان

اتجاه الجميع نحو البحر . يخترقون الظلام إلا من ضوء شاحب يريقه القمر الذى لم يكتمل . لم يشغلهم الضرب بكعوب البنادق ، ولا الجروح التى أحدثتها طعنات السكاكين ، ولا الركلات واللطمات والقبضات . يضربون فى كل اتجاه . الرصاص والفؤوس والسكاكين والعصى الغليظة . اختفت السيارات والدراجات . أخذها من فطنوا إلى ما يحدث فى لحظاته الأولى . قذف شاب يرتدى الوزار بالسمة التى علق فى يده بدوارة . وقف فى طريق الموجات يسأل ، أو يحاول المقاومة . اخترقت الرصاصة رأسه ، فسقط من طوله . وضع الجندى فوهة البندقية فى رأس المرأة . تظاهر بأنه سيطلق الرصاص ، ثم شاط كتف المرأة بآخر ما عنده . سقطت على ظهرها ، ثم حاولت القيام ، مدفوعة بالصخب . تعالى الصياح والدعاء وصرخات الاسترحام واختلاط اللهجات والتمتمة بآيات القرآن والاستغاثات اليائسة . زحفت على ركبتيها ، وقامت . سقطت ، وقامت . سقطت ، وقامت . ارتمت على كتف رجل تستند عليه فى اتجاهه نحو البحر . تتعالى أصوات الصرخات وإطلاق الرصاص والقنابل اليدوية وطققة الأخشاب المحترقة وسقوط أعواد الشجر .

تقترب الأصوات فى ابتعادنا عن المكان . حدثت أنهم لا يندفعون وراءنا فقط ، لكنهم يخرجون من وراء التلال والهضاب والبنىات والغابات والأشجار القريبة . أحكموا الحصار ، فما نستطيع تعلمه هو النزول فى البحر ، أو التهيؤ لطلقات الرصاص . لم يكن أمام الجميع سوى البحر ، أو الموت ..

أثارت الأقدام الحافية ، الملهوفة ، الرمال فى الوجوه ، تعثرت فى الكلاب والقطط ، تسير الفارين فى اتجاههم نحو البحر . أسلموا أنفسهم للجرى . يطلقون الصيحات ، ويسقطون . من يقع يتحامل على نفسه ، يسارع بالوقوف والجرى ، فلا تدوسه الأقدام . يلحقهم القادمون من وراء ، ويواصلون الجرى . رعود الرصاص والانفجارات تتوالى ، عالية ، متشابكة ، لا يبين مصدرها . اختلطت الأجسام والصرخات والصيحات والنداءات والنيران والتدافع والاضطراب والغبار المتكاثف . لم تعد الأصوات تصدر من جهة واحدة ، لكنها قدمت من ناحية البيوت ، ومن الشوارع المتفرعة عن الميدان الرئيسى . البنادق والمدافع الرشاشة تومض بالطلقات ، فتسقط الأجساد أمامى . لا فرصة

للمقاومة ، ولا للدفاع عن النفس . انقضوا كطيور جارحة .
الهجوم موجات متلاحقة ، لا تترك فرصة للدفاع ، أو حتى
لمجرد التقاط الأنفاس . توقفت عجوز بالإعياء . رفعها رجل
على كتفه ، وواصل الجرى . حتى الإرادة غابت ، صاروا
مجرد محاولة للفرار من الجحيم . الفرار بأقصى سرعة ،
وإلى أى مكان . ترامى صوت أبى فى الظلمة . علا صوته
باقترابنا :

— هذا المجنون يرفض القيام من مكانه ..

هتفت بالخوف :

— ديزى ..

نفس النظرة الغامضة تابعتها وهى تجرى ، تسابق
العفاريت بأخر ما عندها :
— ألم أقل لك ؟ ..

لم تكن الأقدام الملهوفة تقصد مكاناً ما ، وإن انتهت إلى
البحر . مجموعات من الفارين تتزاحم حول قوارب صغيرة
. ثمة من فكوا حبال القوارب ، ودفعوا بها إلى قلب المياه .
لحقهم من امتلأت بهم القوارب ، ومضت إلى الساحل المقابل
. اندفع العشرات من الشبان إلى المياه ، ألقوا بأنفسهم فى

الأمواج ، يحاولون السباحة إلى الشاطئ المقابل ، البعيد .
وثمة من ضلوا الطريق بالقوارب الصغيرة ، فابتلعهم
البحر..

سبقنا خلفان الوهيبى إلى قارب . فك الحبل من الوتد ،
وقفز إلى داخل القارب . استحثنا ، فلا تصيينا القذائف ، أو
يلحق بنا الجنود . اندفعنا وراءه . تلاصقنا ، وامتلأ بنا
القارب ..

كان الرجل قد بدأ يحرك مجدافى القارب ، عندما
تلقفنى ركابه من أمى ، وقفزت ورائى . ترامت استغاثة من
الشاطئ ..

قالت أمى :

– هذا صوت جارنا سعود ..

واصل الوهيبى التجديف . أشباح آدمية تحركت من
بعد . اختفت داخل البيوت التى هجرناها . بدت زنجبار –
فى ابتعاد القارب – مجرد أضواء متناثرة . ظلت تشحب
وتغيب ، حتى ابتلعنا الصمت والظلمة ، ما عدا تحرك
المجدافين ، وارتطام الموج بالقارب ..

وقف رجال ونساء على الشاطئ ، يتلقفوننا . لمحت من
بينهم أبى . كان قد سبقنا ..
آخر رؤيتى لزنजार ، عندما التفت ورائى ، أحاول -
خلال الظلام - تبين البيوت التى غيبتها الدخان وامتدادات
النيران المنسحبة فى ابتعادنا عن المدينة ..
رست القوارب فى أقرب الشواطئ الإفريقية . مجرد
الرسو على البر . تعددت أماكن الاستقبال فى الساحل
الإفريقى الشرقى . يضم جاليات عربية كبيرة : مقديشو
وباراوا ولامو ومالندى وممباسة وبامباز وموزمبيق .
تشكلت فيها تجمعات الفارين ، ثم نقلوا بالطائرات ،
وبالباخر ، إلى السلطنة ..
قالت أمى :

— هل انتهت زنجبار من حياتنا ؟
كانها ضغطت على زر ، فجر البكاء والنحيب والنشيج
والتعليقات الحزينة . الحقيقة التى تنساها — أو تتناساها —
عندما تطالعك — فجأة — ملامحها القاسية ..
بعد أن احتوانا الأمان ، بدأت أسرار الليلة الدامية
تتكشف فى كتابات الصحف ، وروايات القادمين ، ورسائل

الذين عجزوا عن الفرار ، وأبقى الزوج على حياتهم .
عرفنا أن من حاولوا الدفاع عن أنفسهم ، وتحصنوا بالبيوت ،
فاجأهم توالى الوميض والرصاص ، والكتل المشتعلة ،
وتعالى ألسنة النيران من الأسطح والحوائق وداخل الغرف .
تحولت البيوت الصغيرة ، المتلاصقة ، إلى جحيم .

لم يكن ما حدث وليد ذاته ولا مصادفة ، ولم يكن القتل
لذاته . سبقه حركات الزوج والسواحليين ، همها التخلص
من العنصر العربي . القتل والضرب وإطلاق الرصاص
والصرخات وإشعال النيران ، لدفعنا إلى الخروج من البيت ،
والإتجاه نحو البحر ، لإخلاء زنجبار من الجنس العربي ،
وإحلال الجنس الإفريقي بدلا منه . وعرفنا أن الجنود
المسلحين اجتاحوا أقسام الشرطة ، واستولوا عليها ،
وحاصروا قصر السلطان خمشيد ، لكن السلطان كان خارج
القصر ، وأفلح فى ركوب البحر مع خدمه ..

تعددت مقدمات الأحداث ، وإن لم يلاحظها أحد ..
ظلت الدكاكين تفتح أبوابها ، والبضائع تنقل من الميناء
وإليه ، والأسواق مزدحمة ، والدواوين الحكومية تضم
العرب والزوج ، والناس يجلسون على المصاطب ، وتحت

أشجار النارجيل ، وأمام شاطئ البحر ، ويقومون حفلات الزفاف والختان والمآتم ، ويتنقلون ما بين زنجبار والمدن الإفريقية الأخرى ، وصوت الأذان يترامى فى مواعيد الصلوات الخمس ، ونحن - الأولاد والبنات - نذهب إلى الكتاتيب والمدارس ، ونلعب فى الساحات وعلى الشاطئ ..

استرجعت أُمى تفصيلات ما حدث ، تذكرت زيارات ديزى لها . جارتنا فى نهاية بيت صغير يطل على الحقول خلف البيت . بدأت صداقتهما فى السوق . بيع وشراء وفصال وأخذ ورد ومناقشات . لبت دعوتها للزيارة . فى المرة الثالثة ، أذنت ديزى لنفسها بالحركة فى البيت . حتى السلام ارتقتها إلى الطابق العلوى ..

قالت للنظرة المتسائلة فى عيني أُمى :

— كنت أطمئن إلى ما سأحصل عليه بعد أن نستولى

على بيوت العرب ..

اتبعت كلماتها ابتسامة ود . لم تسألها أُمى إن كان ما قالته دعاية ، أم أنها تعنيه بالفعل . ثم أهملت الأمر - بتوالى الأيام - تمامًا . لم يكن ثمة نذر تشى بعاصفة ، ولا واجهتها ديزى بعداء ، ولا حدث صدام بين الأفارقة والعرب . تذهب

إلى عملها فى المدرسة الثانوية . تعود فى الأوتوبيس . تعبر
أحياء الأفارقة . تبادل من تعرفهم التحية . ربما دخلت فى
مناقشات ، أو قبلت الدعوة للزيارة ، أو وجهت هى الدعوة

..

إذا كنت قد أمضيت طفولتى فى زنجبار ، فإن أمى
أمضت فيها معظم عمرها . أهم ما تعزز باقتنائه - حتى
الآن - مكحلة من الفضة ، كانت فى ثيابها لما بدأت المذبحة .
يخالط صوتها نبرة حزن ، عندما تلح الذاكرة بتلك الأيام .
أفطن إلى ما تعانيه ، فأنقل الكلام إلى موضوعات أخرى .

توالت - فى الأسابيع التالية - أنباء قاسية . امتد
الهجوم إلى القرى المحيطة بزنجبار . سطوا على البيوت .
أخرجوا ما بها من أثاث ومتعلقات شخصية ، حملتها
جماعات إلى بعيد ، ثم قذفوا بكرات اللهب على البيوت .
تعالت النيران . أضاءت ليل المدينة ..

كانت مذبحة دموية قتل فيها ما بين عشرين إلى
خمسين ألفاً ..

سألت أمى :

- من الذى رفض التحرك فى مكانه ؟ ..

قال أبى :

— الشيخ حسن خليفة أصر أن يموت ويدفن فى أرض
زنجبار .. لم نعد نعرف عنه شيئًا ، وإن استعاد أبى عنه
قوله : لو أن الكل فروا .. من يبقى فى زنجبار؟! ..

وتلكأت الكلمات على شفيتها :

— انتهى كل شئ صباح الأحد ٢١ يناير . لم تعد

زنجبار عربية ..

وداخل صوتها تغير :

— بعد أربعة أشهر .. أعلن قيام الوحدة بين تنجانيقا

وزنجبار .. أصبح اسم الدولة تنزانيا ..

رنوت إليها ، أبحث — بتلقائية — عن آثار المعاناة

القديمة ..

الشعر المهوش يحيط وجهها بهالة من السواد ،

والعينان الواسعتان ، البريتتان ، تطل منهما ابتسامة صافية ،

وإن ومض فيهما حزن . وكانت قد استبدلت باليونيفورم

بلوزة قطنية ، وبنطلونًا من الجينز ، وحذاء رياضيا ..

— أفلحنا فى الهرب .. ما عدا أخوى سعيد وصالح ..

لحقهما — فيما يبدو — رصاص الجنود ..

ثم تنهدت :

— كان أول ما حرص عليه أبى أن أوصل دراستى

فى مسقط ..

وانترعت ابتسامة :

— لو أن ذلك لم يحدث ما كنا التقينا فى مطار السيب ..

غالب التردد :

— قرأت أن الثورة كانت ضد السلطان ..

وهى تغمض عينيها فى تأثر :

— السلطان جمشيد فر فى قاربه إلى كينيا ، بينما

المواطنون العرب هم الذين قتلوا وشردوا ..

وتسلم نفسها إلى شرود :

— ماذا يفعل العرب الذين بقوا فى زنجبار ؟

أردفت كالمتذكرة :

— حمل لنا من ظل فى زنجبار من أهلنا ، فى زيارتهم

إلى مسقط ، ما نشرته صحف تنجانيقا عن المذبحة . كانت

تنجانيقا وزنجبار قد أصبحتا — منذ تلك الأيام — بلداً واحداً .

كتبت الصحف عن القضاء على الاستعمار العربى فى

زنجبار الإفريقية . كان أبى يعلق على العبارات القاسية

بالقول : نحن لم نكن كذلك !. ونحن لم نكن كذلك بالفعل .
ولدت فى زنجبار ، وعشت فيها دون أن يخطر ببالى فارق
من أى نوع بين عربى وإفريقى . أحببتها لأنها بلدى ، وليس
لأى معنى آخر .

قلت :

— لكل منا وجهة نظره التى قد تختلف مع وجهات

نظر الآخرين ..

— أنا لا أعبر عن وجهة نظر .. وإنما عن حياة عشتها

.. طفولة وذكريات وصدقات ..

ووشى صوتها بالتأثر :

— لم نكن يهوداً طردنا أصحاب البلاد لنستوطن بدلاً

منهم ..

وأطرقت لحظة ، ثم رفعت رأسها :

- ضمت زنجبار الجميع باعتبارهم أبناؤها ..

— وجهة نظرهم أنها بلد إفريقى ، ويجب أن يظل

كذلك ..

— ما أذهلنى أن بعض الصحف تحدثت عن انتصار

المسيحيين على المسلمين ..

ورحلت نظراتها إلى بعيد :
- ما حدث لم يكن حربًا ..
ومررت جانب يدها على رقبتها دلالة الموت :
- كانت مذبحه ضد كل ما هو عربى !..

قالت زوينة :

- وأنا أسير فى شوارع مسقط أشعر كأنى أسير فى
شوارع زنجبار .. حتى القعدات خارج البيوت تذكرنى
بالجزيرة . وقالت : حتى أبواب البيوت المتلاصقة والنوافذ
والمحال الصغيرة النوم بعد العشاء ، وخلو الشوارع من
السيارات والمارة .. كلها تذكرنى بالحياة فى زنجبار .
وقالت : حتى اختلاف الأديان والجنسيات الذى نراه هنا ..
أهل مسقط وأبناء الداخل والظفاريين واللواتيا والبلوش
والهنود والباكستانيين والعرب .. ذلك كله ظل مظهر الحياة
فى زنجبار . وتنهدت : حتى حدث ما حدث ..
تحدثت عن زنجبار : الأسواق والمساجد وصخور
المرجان والشواطئ الطويلة والرمال البيضاء وأشجار جوز
الهند والثوم والنسق العربى فى العمارة والميناء المطل على

المحيط يستقبل كل أنواع السفن . وتحدثت عن راحة القرنفل والفوانيس الصغيرة فى رمضان وأشجار جوز الهند وشجر المانجو والأناناس والموز والبرتقال ..

قالت :

— يختلف جو زنجبار عن جو مسقط فى أنه معتدل معظم السنة ..

ولانت ملامح وجهها :

— يربط مناخها الهواء القادم من المحيط ..
أخمن من كلامها أنها تنقل عن آخرين ، ربما أبوها أو أمها ، وإن تحدثت عن ذلك كأنها هى التى شاهدت ..
قالت :

— قد لا تعرف أن سعيد بن أحمد ، سلطان مسقط ، قرر فى ٢٣٨١ أن يجعل زنجبار عاصمة للبلاد بدلاً من مسقط .. أصبحت عاصمة لمملكة عمان وإفريقية الشرقية ، وانتقل إليها المئات من أبناء عمان ..

ثم وهى تعد على أصابعها :

- موقعها ومواردها الطبيعية ومينائها الممتاز .. ذلك كله رشحها لأن تكون العاصمة ..

— لكن زنجبار تظل بلداً إفريقياً ..

قالت فى نبذة تصديق :

— لا أحد ينكر !

قلت :

— مأساة الهنود الحمر والأوروبيين ..

وهى تهز إصبعها :

— تشييه خاطئ . لم يواجه الأفارقة فى زنجبار شبهة

إبادة ، وعاشوا مع العمانيين فى سلام ..

— لكن زنجبار تظل وطنهم ..

— وهى وطنى أيضاً! ..

واكتسب صوتها نبذة شجن واضحة :

— تؤلمنى الوسيلة القاسية التى خرجنا بها . لم يكن قد

سبق ذلك اعتراض ولا تمرد ولا ثورة (وأشارت إلى ما

حولها) مع أن العمانيين - كما ترى - بلا حول ولا قوة ..

قلت وأنا أرنو إليها بنظرة تتأمل رد الفعل :

— قبلت صراحتى .. ما حدث كان ينبغى أن يتوقعه

العمانيون ، وإن جاء الأسلوب قاسياً ..

أردفت فى ابتسامة متكلفة :

— الاستعمار يغلق دكاكينه فى العالم كله . بديهى أن
يغلق دكان زنجبار أبوابه ..

— دخل العمانيون زنجبار بالإسلام والنجيل . لم
يدخلوا بالسلاح ..

— تختلف التسميات .. لكن الاستعمار يظل استعمارًا ..
أخليت وجهى للدهشة :

— هل تنكرين على الأفارقة حقهم فى الاستقلال ؟

— هذا موضوع يصعب أن أناقشه بالعقل ..

استغرقتها التفكير ، أو الشرود . بدا صوتها كالهمس ،
كأنها تخاطب نفسها ، أو لا يعينها إن كنت أستمع إليها :

— ولدت فى زنجبار ، وعشت فيها طفولتى . كنت
أعرفها ، ولا أعرف عمان حتى طردونا إليها . لم أكن
أعددت نفسى للرحيل غربًا .. لترك زنجبار ، ولا تصورت
نفسى بعيدة عنها ..

ثم وهى تحكم الإيشارب على رأسها :

— أصارك أنى احتجت إلى وقت لأقنع نفسى بأن
عمان هى وطنى أيضًا . تقاسمنى — لفترة طويلة —
شعوران : الحنين إلى زنجبار ، والدهشة لصور حياتنا

الجديدة فى مسقط . أسأل وأقارن وأتذكر . ظل الشعور ان
يتقاسماننى ، ثم حل شعور الألفة للمكان فى البيت والعمل
والصداقات ..

قلت وأنا أحتضنها بنظرة مشفقة :

– المثل يقول : وطنك حيث قلبك . أرى أن قلبك –

حتى الآن – فى زنجبار ..

من المستحيل أن أنسى زنجبار . وبعيدا عن السياسة

فهى وطنى الذى أحبه ..

– وعمان ؟

- زنجبار هى الوطن .. أما عمان فإن الوطن الأم هى

التسمية التى أفضلها ..

أردفت كأنها توضح :

– عمان هى وطنى أيضا .. ليست بلداً مختلفاً ،

وأعرف أن جذورى فيها ..

فاجأتها بالسؤال :

- هل انقطعت صلتكم بزنجبار ؟..

- لنا أقارب هناك .. يأتون للزيارة ..

- جنسيتهم عمانية ؟!

- لم يفيدوا من المهلة التي حددتها الدولة للمجىء إلى الوطن والحصول على الجنسية ..

أردفت لتساؤل ملامحى :

— حددت الدولة موعداً بعد ٠٧٩١ ليستعيد أبناء زنجبار ذوو الأصل العماني جنسيتهم .. أهملوا الأمر حتى فانت الفرصة !..

قلت :

- أتمنى لو تستضيفيننى فى بيتك ..

قالت :

— أنا ضد الكثير من التقاليد .. لكن أهلى مع كل

التقاليد !

الخط كوفى جميل . مكتب الإعلام ..

مضى على عملى فى مسقط أكثر من عامين .. لماذا

تذكرتنى هذه الدعوة ؟

المكتب فى داخل البنايات ذات الطابقين الملحقة بالقصر .
بدا القصر فى نهاية الساحة الرخامية الواسعة ، بألوانه
الزاهية ، وأعمدته الرخامية ، والنافورات ، والحدائق ،
والنوافذ الزجاجية العالية ..

أعددت نفسى لأسئلة ومراجعة أوراق وتفتيش ، لكن
الطريق امتد خالياً . الأرضية من البلاط السيراميك ،
والأبواب مغلقة ، أو منفرجة ، والصمت يعمقه هدير
المكيفات ..

سألت الحارس أمام الباب الخشبى المزين بنقوش

إسلامية :

- أين مكتب الإعلام ؟ ..

المكتب أشبه بقاعة مستطيلة . على الجدار ، قبالة الباب ، صورة للسلطان بزيه العسكرى يركب جواداً . ولصق جدرانها مكاتب خشبية ، غطيت واجهاتها - من الداخل - بستائر بيضاء . واسم سليم الغافرى على حافة المكتب الضخم الخالى من أية أوراق ..
وقف الرجل فى مودة ظاهرة . سلم بيد ، وأشار إلى الكرسي باليد الأخرى ..

تشاغلته - لمغالبة الحرج - بإعادة تأمل المكان . لاحظت أنه استغنى عن المكيف بفتح النافذة المطلة على الخليج ..

- أهلاً وسهلاً - نورت مسقط ..

هل هى مجرد كلمات للمجاملة ، أو أنه عرف -

متأخراً - بوجودى فى السلطنة ؟

كان فى حوالى السبعين . نحافته المسرفة تدارى ضآلة تكوينه الجسدى . تعانى بشرته أثر جدرى قديم . يرتدى نظارة شمسية ، خمنت أنها تدارى مرضاً فى العينين ، بدت

الصبغة واضحة فى رأسه وحاجبيه وشاربه الأقرب إلى خط
بعرض السنتمتر ..

— أتابع نشاطك فى الجريدة .. جميل ..

يعرف إذن بإقامتى الطويلة ..

— العمل فى الجريدة يأخذ كل وقتى ..

واتجهت إليه بنظرة ود :

- لكننى سعدت بالدعوة الكريمة ..

قال :

— أنا أدين للثقافة المصرية بالكثير مما تعلمته .. لا

أنسى ترقبى لوصول السفن إلى صلالة حتى أحصل على

الأعداد المتأخرة من الرسالة والثقافة ..

ثم وهو يمسح شاربه بإصبعه :

— هاتان المجلتان هما الزاد الحقيقى لمثقفى أيامنا ..

بدت آراؤه مقنعة فى عمومها : أنت تلتقى بالتاريخ

والتراث فى مسقط وسمائل ونزوى وبهلا وكل المدن العمانية

، إلى نزوى أو إلى صحار . حتى الجبال الصخرية تبين عن

روح التاريخ ، عن تواصل الزمان والمكان . من السهل تبين

أن المجتمع العمانى كان - منذ القديم - ذا طبيعة عسكرية

واضحة . القلاع والحصون التى تطالعك أينما سرت .
الخنجر الذى يعد جزءاً من الزى العمانى . المعارك
المتواصلة بين العمانيين والغزاة ، وأتباع المذهب الإباضى
وأتباع المذاهب الأخرى ، والقبائل العمانية وقبائل منطقة
الخليج ، والقبائل العمانية بعضها ضد البعض .. وأخيراً
قوات السلطان المسلحة ومتمردي ظفار ..

سألت :

– انتهت ؟ ..

– طبعاً .. كان فى ضيافتى ليلة أمس ثلاثة من قادة "
الجهة " .. استسلم الجميع ، ولم يعد فى ظفار قلاقل أو
توترات ولا معارك كبيرة أو صغيرة ..

قلت :

– قال السلطان فى حديث مع الصحفى عبد العظيم
مناف إن عمان كانت هى الخليج ، وستعود كما كانت ..

واتجهت إليه بنظرة متسائلة :

– هل تنوى السلطنة استعادة ما ترى أنه جزء من

أراضيها ؟ ..

وتعمدت التلكؤ فى النطق :

- هل تتوقع حربًا ذات يوم بين عمان وجاراتها ؟
ارتبك للسؤال . بدا أنه يبحث عن إجابة لا تدينه . قال
بعد تردد :

— لماذا العمل السياسى إذن إن جعلنا القوة هى السبيل
الوحيد لاسترداد حقنا ؟

تأمل الإجابة . بدا أنها أعجبتة .

سألت :

— هل تعد السلطنة لضم إمارات الساحل ؟

أعجزه الارتباك عن الإجابة تمامًا . قال :

— لم تكن إمارات الخليج وحدها جزءًا من عمان ..
هناك زنجبار ..

هل الملاحظة عفوية ، أو أنه يعرف — فى مجتمع

الأعين المراقبة والآذان المتنصتة - بحكايتى مع زويينة ؟

نقلت ملاحظته ارتبائه إلى 惜 . قلت :

— كانت عمان إمبراطورية ..

أمن بهزة من رأسه :

— هذا صحيح .

وقال : لعلك لا تعرف أن زنجبار كلمة عربية محرفة أصلها بر الزنج . وقال : كانت زنجبار مجرد جزيرة فقيرة .. ثم عمرها العمانيون . وقال : ظلت زنجبار على ازدهارها ، حتى دخلها الاستعمار الألماني فالإنجليزى ، فتبدلت الأحوال ..

طال حديثه ، فشرذ ذهنى . اختلطت الصور وتشابكت بين القاهرة ومسقط وزنجبار التى لم أشاهدها . اكتشاف العمانيين لأواسط إفريقية . وصولهم إلى حوض نهر الكونغو والبحيرات والجبال المغطاة بالثلوج والغابات الممتلئة بالوحوش الضارية والتماسيح والحشرات . لم تصيح هى الجزيرة الخصبة ، الجميلة ، إلاّ بعد أن نزح عنها البرتغاليون فى القرن الثامن عشر ، وقدم العرب بالقرنفل والزنجبيل والبنيات الحديدية . لم يكن العرب طارئين على إفريقية . توالى هجراتهم إلى بلاد القارة منذ آلاف السنين . نقلوا الإسلام ، واندمجوا فى أهلها . وجاء يوم كان إذا ضرب فيه السلطان طبوله فى زنجبار رقصت على إيقاعها كل غابات إفريقية . ظل العلم العربى يخفق - بمفرده - فوق بنايات زنجبار ، ثم ارتفع العلم الإنجليزى - إلى جانبه

— للمرة الأولى فى ٣٤٨١ . تداخلت البذلة والدشداشة والوزار وأحاديث زويينة عن تشابه الملامح ، وهزة رأس السائق الهندى كالبندول وهمسه المؤذب : سير ، ومرافقة خميس المناعى للإنجليز المسافرين إلى بلادهم ..

قال : عمر العرب زنجبار بالقرنفل والنارجيل . وقال : لم تكن الجزيرة تعرفهما قبل دخول العرب . وقال : لولا زراعة العرب للقرنفل والنارجيل ما كانت زنجبار التى أطمعت فيها الآخرين . وقال : المكانة التى احتلتها زنجبار بواسطة العمانيين هى التى نبهت المطامع الأوروبية إليها . وقال : لم يكن البر الإفريقى بالنسبة للأوروبيين سوى أرض مجهولة حتى دخلها العمانيون . وقال : كانت ستظل جزيرة فقيرة . وقال : حتى الأكواخ التى كانت تشكل المظهر المدنى للجزيرة استبدل بها العرب البيوت والقصور . وقال : لم يكن فى الجزيرة بنايات حقيقية ، فملأها العمانيون بالقصور . وقال : حتى المطبعة خلت منها السلطنة إلى أيام قابوس ، بينما كان فى زنجبار مطبعة حديثة ..

استعدت قراءات دفعتنى إليها العلاقة الجديدة :

— لم يكن الزنجبيل والقرنفل وحدهما سبب الرخاء
الذى حققه العرب فى زنجبار . هناك بيع الرقيق ..
— تحرير الرقيق دعوة حق أريد بها باطل .
وقال : لم تكن حملات تحرير الرقيق إلا وسيلة لفرض
الاستعمار الأوروبى . وقال : إلغاء الرقيق كان يعنى القضاء
على القوى العاملة فى الزراعة ، والقضاء على الثروة
الزراعية بالتالى . كان إلغاء الرقيق إلغاء للرخاء فى زنجبار
. وقال : حررت القوانين العبيد من السخرة ، وأطلقت لهم
حرية السرقة والنهب . وقال : أنهيت مشكلة ، وظهرت
مشكلة أخرى ..

واتجه إلى بالسؤال :

— هل يحرم الإسلام الرقيق ؟

قلت للتخلص من ارتباكى :

— لا أعرف !

— الإسلام لم يحرم الرقيق . وكان الرقيق لصالح

الاقتصاد فى زنجبار .. فلصالح من إلغاه ؟

— لصالح الرقيق أنفسهم ..

— كان الخير يعم الجميع ..

واتتنى جرأة :

— لا شئ يبرر العبودية .. انتهى الرقيق فى العالم كله ..

— ليس بالطرفة . حرروا الرقيق قبل أن يستبدلوا به الآلة التى تغنى عنه ..
وعلا صوته :

— لو أن العمانيين أتاحت لهم الآلة ما أبقوا على الرقيق ..

— ربما لذلك جاء تأييد عبد الناصر لتولى الأفارقة السلطة ..

كانى ضغطت على زر . اعتدل فى جلسته ، ثم لم يعد هو . كأنه يكلم نفسه ، أو لا يعنيه إن كنت أستمع إليه . تكلم بلا توقف . بدا أن الأفكار تتزاحم فى ذهنه ، والكلمات تتقاطع . سرى التوتر بالحمرة فى وجهه ، ونفر شريان فى عنقه ..

— أن يطردنا الأفارقة ، فذلك تصرف ينطوى على وجهة نظر ، نقبلها أو نرفضها . أما أن يوافق جمال عبد الناصر على المذبحة ، فذلك ما يصعب تصديقه . هل نسى

فى انشغاله بتحرر إفريقيا ما واجهه عرب زنجبار من مذابح مؤلمة ؟ الزعامة مسئولية . مصيبة الزعيم عندما ينسى مسئوليته . ينشغل بالواجهة ، ويسقط التفاصيل . ماذا تعنى الخيانة ؟. عبد الناصر رفع شعار وحدة الأرض العربية ، وهو الذى مزق الأرض العربية . تحدث عن الوحدة العربية من المحيط إلى الخليج ، فحدث التمزق من المحيط إلى الخليج : فلسطين وسيناء وجنوب لبنان والجزلان وزنجبار . كانت زنجبار أرضاً عربية ، أو يحكمها العرب . هل أذكرك بحرصه على أن يكون رئيساً لمصر وحدها ، بدلاً من محمد نجيب الذى قبل السودانىون رئاسته لمصر والسودان ؟. جعل أبواقه هزيمة ٦٥٩١ انتصاراً فى وسائل الإعلام . تجاهلوا آلاف القتلى من الجنود المصريين ، والإذن لسفن إسرائيل بعبور مضيق تيران . تكررت الهزيمة - بصورة أقسى - فى ٧٦٩١ . دعا الأمريكان إلى الارتواء من البحر الأحمر ، فاضطر جنوده - فى انسحابهم المتخبط - إلى شرب البول . هل أذكرك بالوحدة الأمل بين سوريا ومصر ؟.. ترك مسئولية سوريا إلى صديقه الذى لا يعرف إلا النساء والحشيش وكرة القدم ، فعجل بالانفصال !..

وقال :

- خرج الإنجليز من زنجبار فى ديسمبر ٣٦٩١ ، ثم حدثت المذبحة . ألا يذكرك ذلك بخروج الإنجليز من فلسطين بعد انتهاء الانتداب ؟

هزرت رأسى بغير معنى محدد ..

قال الرجل :

—رحلوا لحساب اليهود ..

وتبدلت نبرة صوته :

— ذلك ما فعله الإنجليز فى زنجبار . انسحبوا من الجزيرة فى ديسمبر ، ثم قام الزنوج بالمذبحة بعد خمسة أسابيع !

وهز قبضة يده :

- زنجبار أندلس صغرى .. مسلمو زنجبار ظلوا على دينهم . أما مسلمو الأندلس فقد تلاشوا بمحاكم التفتيش ! هل يمكن أن نضيف زنجبار - كما قال الشيخ - إلى الأندلس وفلسطين ؟ هل يمكن أن نضيفها إلى سبتة ومليلة والإسكندرونة ؟ هل نضيفها إلى الأجزاء العربية التى تساقطت فى تآكل الجسد ؟

— ناصر التميمي ..

أضاف الشيخ حمود النبهاني وهو يشير إلى الشاب
النحيل بالجلوس على الكرسي المواجه له أمام المكتب :

— ناصر ولد ذكي .. أثق — إن أحسنت تدريبه — أنه

سيصبح أول صحفي عماني !

في حوالى الخامسة والعشرين . قامه طويلة ، رشيقة .
وعينان تنمان عن طيبة . له ابتسامة حيية . يرتدى دشاشة
أقرب إلى الرمادى ، وعلى رأسه كمة مطرزة بنقوش ..
لم أكن أملك وقتاً للتعليم ولا للمتابعة . قررت أن أترك
له الفهم والسؤال فى أثناء خطوات الإعداد لصدور الجريدة .
أفكر بصوت عال ، وأترك له تقليد ما أفعل . يعيده مرة
واثنتين حتى يتقنه .

كلمنى - وهو يتابع ما أفعله - عن بلدته " قريات " ،
وأسرته ، ووقوفه مع أبيه فى " ميني ماركت " - هذه هى
التسمية التى قالها - بالقرب من البيت . أظهر تفهماً وميلاً
للتعاون ، فذوت الصورة التى تكونت من تصرفات الآخرين
ومعاملاتهم . بدا مبتسماً ، وودوداً ، وميلاً للتعلم ..

حين تناهت الدقات الخافتة ، سبقنى إلى فتح الباب ..
لم أعرف كيف قدمت زوبنة نفسها إليه ، ولا كيف قدم
نفسه ، لكنها قضت على مخاوفى ببساطتها العفوية . توالى
أسئلتها ، وتحدث ناصر عن تخرجه فى معهد المعلمين
بالوطنية ، وأبويه ، وأسرته المؤلفة من ولد وبنيتين . لم أكن
عنية بسؤاله ، فأضافت إلى ملامح صورته ألواناً وعمقاً ..
أدركت أن وقت ما بعد الظهر هو الذى تجدنى فيه
بمفردى . تعيد ترتيب حجرة المكتب ، وتعد الشاي ، أو
الطعام ، فى المطبخ ، ولا تنعى هم قدوم أحد بعد مواعيد
الدوام ..

لم أعد أفكر إن كانت مشاعرى نحوها حياً ، أو أنها
تقف عند حد الصداقة ..

تأملت تعبير يهجت حسان : مسقط عبارة عن مجموعة من الأحياء المتناثرة ، تفصل بينها التلال والروابي . مسقط ، أقرب - بشوارعها الترابية ، وبيوتها الأفقية التصميم ، والشمس اللاهبة - إلى الوادى الجديد وسيوة وسيناء . مدينة تنتمى إلى البداوة والصحراء ، فيما عدا العمارات القليلة المتناثرة فى روى والقرم .

تغيرت صورة مسقط فى عيني . لم تعد موحشة ، أعانى فيها الوحدة والملل . أصبحت مكاناً جديداً لم أتعرف إليه من قبل . كانت تمضى أياماً طويلة فى المطار . تطرق الباب بما ألقته فى أوقات متباعدة . نتكلم ونحن واقفان على الباب الخارجى ، أو نتواعد على لقاء فى فندق مسقط إنتر كوتيننتال ، أو فندق روى ، أو فندق الخليج . تتردد عليها بحكم عملها فى العلاقات العامة بطيران الخليج . أنتظرها فى الموعد الذى تحدده . تجلس أمامى ، هذه السمراء الجميلة ، النقية ، كقطرة الندى . تفصل بيننا الطاولة الصغيرة ، وناصر يتشاغل بتأمل ما حوله ، أو يشارك بكلمات قليلة ، أو يعقب بسؤال . أدرك معنى التفاتها إلى الداخلين من الباب

الزجاجى . أحرص ، فلا أبدى ملاحظة . لا تعلقو كلماتنا عن
الهمس بما يتفق مع هدوء الكافيتريا . يفرض اقتحام نظرات
الفضول أو غيابها طول الجلسة وقصرها . يداخلنى ما لم
أشعر به من قبل . يجف حلقى ، يتفصد العرق على جبهتى .
تتلعثم الكلمات ، وتضيع المعانى . ربما طالت أحاديثنا .
شراقت و غرايت . امتدت إلى ظروف عملها وظروف عملى .
ربما اكتفينا بكلمات اجترار الود ، وانصرفنا . وكنت أفكر
- فى حضور الجالس بيننا ، والمتناثرين على الموائد - أن
أضمها إلى صدرى ، وأسلم نفسى لتصورات ، لكننى أكنم
مشاعرى . وكانت النشوة تغمرنى إذا لامستنى - على أى
نحو - فى حركتها بجانبى . مجرد أن يمس بنطلونها ذراعى
، أو تصطدم قدمها بقدمى . أى شئ ..

كانت المرة الأولى التى أترك فيها الحمريّة وروى
والولجة ومطرح ..
جلس ناصر إلى جانبى فى السيارة ، وجلست زويّنة
وأخوها الصغير فى المقعد الخلفى ..

لم تكن تصحبنى إلى أى مكان دون أن يرافقها أخوها الصغير . كنت أحرض ناصر على أن يصحبنى لألتقى بها ، وليرافقنا فى الأماكن التى تخشى - نخشى - أن يرانا فيها أحد . يغلب عليها التوتر - وربما الخوف - من أن يراها أحد معى . لزنجبار تقاليدها أيضاً . العمانيون هم العمانيون ، هناك وهنا . عزلة البيتين فى حضان الجبل تمنع نظرات الفضول والمساءلة . كان ناصر يعتذر فى البداية . ثم يرضخ لإصرارى . وكان يسهل علينا الأمر أننا لم نكن نفعل ما يفعله المحبون . فى بالى ، حرصها على أن تظل العلاقة بين صديقين ، لا تتجاوزها . ثمة حواجز غير مرئية نشأت بينى وبينها ، أتبينها دون أن أراها ..

يهمنى ألاّ أفقدها ثانية . وكنت أنفض رأسى ، ربما تغيب صورتها . لكن الصورة تظل فى موضعها من الذهن . ليست ثابتة ، ليست مجرد وجه وعينين وأنف وشفتين . تتبدل فى حركات وتصرفات وإيماءات ، من لقاءاتنا فى المكتب ، فى السيارة ، فى الشوارع ، فى الفنادق . تختلط الصور وتتشابك ، فلا يبقى إلا صورة زوينة وحدها ، واضحة الملامح والقسمات ..

كانت ترتدى قميصاً ينسدل إلى الركبتين ، وسروالاً فضفاضاً طويلاً ، يضيق عند الكاحلين ، وتلف شعرها بعصاية من الحرير ..

لاحظت نظرتى :

— لو أنى ظللت فى زنجبار ، ربما كنت أرتدى الشراع ..

— الشراع ؟

— ثوب واسع ..

واتسعت ابتسامتها :

— فرى سايز كما يقال ..

الطريق إلى نزوى شق طويل — فى معظمه — بين الصخور وسلاسل الجبال الصغيرة ، المتلاحقة ، وإن تكشف الساحل كالومضات السريعة على يمين الطريق . والجبل الأخضر — فى البعد — تكسوه الثلوج ، تضوى بألق الشمس ..

قال لى سليم الغافرى :

— سميت نزوى على اسم جبل مرتفع ، أو نسبة لمورد

ماء كان تحت قلعتها الهائلة .. سميت كذلك بيضة الإسلام ..

تركنا السيارة فى السوق الرئيسية . أخلينا لأقدامنا السير فى الشوارع والأسواق والتطلع إلى البنايات والدكاكين والأسواق والقلاع والحصون والجامع الكبير . قال ناصر إنه لا يزال مقرًا لدراسة الفقه والعلوم ، وجامع سلطان ، ومسجد الشواذنة ، ومسجد الشرجة ، ومسجد العين ، وحصن تنوف ، وحصن الرويدة ، ومحال صنع الحلوى العمانية والمشغولات الذهبية والفضية . وثمة أجانب ثلاثة - خمنت أنهم من الإنجليز - فى أيديهم خرائط ، يحددون من خلالها المواقع التى يقفون فيها ، أو التى يتجهون لرؤيتها ..

قلعة نزوى ..

برج دائرى كبير ، قديم ، لونه أقرب إلى الصفرة ، به فتحات للمدفعية . تهدمت بعض الجدران ، أو تطايرت الحواف ، وامتلت الجدران الأقرب إلى الصفرة بعشرات الثقوب من طلقات البنادق أو المدافع الرشاشة . الباب الضخم مطعم بالصدف ، والأرض تغطت بقطع الحجارة ، والجدران المتطايرة من القصف ، والرمال . الفتحات فى أعلى ، تطل على الساحة المقابلة والبنايات وأشجار النخيل والجبال الممتدة إلى مدى الأفق ..

حصن جبرين ..

ثلاثة طوابق مبنية بالجص والصخور . السور من حولها يمتد طويلا- ، يطل على ما حوله ببوابات وفتحات للمراقبة وأبراج . ذات مدخل مقوس ، والباب الخشبي الكبير مزين بنقوش تقليدية ، نوافذها مربعة ، مشبكة ، ذات عماد حجري . تطل على ساحة القلعة الداخلية . الأسقف الخشبية مزدانة بالزخرفة ، والجدران منقوشة بآيات القرآن وأبيات الشعر والزخارف الفنية وأعمال الجص النافرة ، ويبدو من الكوات والتجاويف ضوء النهار ومشاهد الجبل الأخضر وراء القلعة ، وأفق تلتقى فيه الخضرة والصفرة ..

قال ناصر :

— شيده الإمام بلعرب بن سلطان بن سيف اليعربى
لحماية منطقة وادى قريات ..

ثم وهو يشير بيده :

— فى الداخل .. يوجد ضريح الإمام بلعرب ..
صعدنا إلى ما سمته زوينة مجلس الإمام الخاص فى
أعلى القلعة : حجرة واسعة ، يتردد فيها الهواء . ذات سقف

مطلّى بألوان واضحة ، وتطل على المشهد الممتد من
السهول حتى مرتفعات الجبل الأخضر ..

كان ناصر يقرأ على جدار مبنى قديم فى السوق
الكبيرة منشوراً من الوالى ، يحدّر فيه المواطنين من عدم
أداء صلاة الجمعة ، وأن ذلك مخالف لتعاليم الدين وأوامر
السلطان ، ويشدد على وجوب التزام الجميع بالسعى إلى
الجامع الكبير فى موعد صلاة الجمعة ..

فاجأتنى زوينة بالقول :

— أنت لم تحدثنى عن نفسك .. عمك فى القاهرة
وأسرتك ..

أضافت بإيماءة من رأسها :

— وغير ذلك ..

— أعمل — كما تعلمين — صحفياً .. وأبى على
المعاش .. لكنه ينتمى فى أفكاره إلى الجيل القديم .. وأمى
أكثر من طيبة .. ولى أخوان .. ولدان ، وطفلة ..
— هل عمك فى القاهرة مماثل لعمك هنا ..
— أنا صحفى .. كما قلت لك ..
— أقصد .. هل تعد الجريدة بمفردك ؟ ..

— طبعاً لا .. الجريدة هناك مجهود آلاف الصحفيين والإداريين والفنيين ، بالإضافة إلى المطابع والإعلانات والتوزيع ..

ودفعت فى فمى برشفة أخيرة من فنجان القهوة :

— شئ مختلف تماماً ..

واتجهت إليها بنظرة تطلب تصديقها :

— لكننى استفدت من تجربة المحرر الواحد ..

لاحظت انشغال ناصر بقراءة بيان من الوالى علق على

جدار البناية المجاورة للقلعة . قالت :

— وقلبك .. ما أحواله ؟

— ثبتت سلامته عندما أجريت الكشف الطبى عليه قبل

تعيينى فى الجريدة ..

ابتسمت :

— أعنى أحواله العاطفية ..

توقعت أن تهمس لى بالبراءة التى اعتدتها : أحبك ..

— خطيبتى — قلت لك — اسمها مها ..

هممت بإعلان ما فى نفسى . ثم تصورت ما بعد

المصارحة ، فابتلعت الكلمات ..

قالت :

- متى تتزوجان ؟..

- قولى .. متى تفترقان ؟

أظهرت الفزع :

- لماذا ؟..

- تريد أن تكفى بجنى الثمار ..

أردفت للدهشة المتسائلة :

- تفضل أن تنتظر فى القاهرة حتى أكون نفسى على

حد تعبير أمها .. ثم تتزوج ..

- هل عرضت عليها المجرىء معك ؟..

- أمها رفضت مجرد الفكرة .. وصوتها من صوت

أمها ..

تكلمت ..

رويت حتى ما لم أكن أتصور أنى أبوح به . ما كنت

أعتبره سراى الخاص ، فلا يعرفه الآخرون . وتناثرت أسماء

القاهرة ، ومها ، والجريدة ، وأم مها ، وأيمن ، وشارع

الغزالة ، وميدان الدقى ، ورئيس التحرير ..

أتوقع - ويضايقنى - أن الأسئلة التى اتجه بها إليها ،
ترد عنها أمها . تتلملم فى جلستها على الكنبه ، أوسط
الصالة ، وتجيب . تحمل الإجابة تلميحات وتلمييزات
وشروطاً لامعنى لها .. لكن الصمت السادر ، واكتفاء مها
بأن تحنى الرأس ، فلا تتكلم ، يدفعنى إلى مخاطبتها ،
وتوقع الرد من الأم المتربعة على الكنبه ..

قالت زويينة :

— كما فهمت .. أحوالك المادية مستقرة ..

— استقرار لا يشى بتطور ..

وتنهدت :

— لهذا سافرت ..

قالت فى تخابث طفولى :

— هل خطبت فتاتك قبل أن تعد نفسك للسفر ..

— بدا أن إتمام الزواج غائب .. فبدأت البحث فى

إمكانية السفر ..

— مشكلة !

أمنت على قولها :

— مشكلة !..

تنبتهت إلى الأوراق المطوية على الطاولة أمام المكتب ،
تناثرت فيها أسماء أشخاص وأماكن وأحداث ، وكلمات
واضحة وناقصة ومطموسة ..
حين سألت عبد العال عنها ، بدا عليه تيقن أنى قرأت ما
بها . كنت قد طالعتها بالفعل ، تصفحتها ، لكن المعانى ظلت
غائبة ..

قال وهو يعيد طى الأوراق فى يده :
_ أنت تدفع عمرك ثمنًا لمن لا يستحقونه ! ..
أضاف للدهشة المتسائلة فى عيني :
_ إنها أم لطفلين .. وأتصور نفسى زوجًا لا بأس به
.. لكن الخيانة فى دمها ..

وتلون صوته بحزن :
_ كنت أضع كل ما أحصل عليه هنا ، فى يديها .. ثم
اكتشفت أنى كنت أعطى النقود بواسطتها لشخص ثالث ..
فاجأتنى الكلمات . أنسى لى إلى حد مكاشفتى بأسرار
عمله : المدرسة والتلاميذ ومفتشى الوزارة .. لكننى لم
أتصور أنه يفتح بابًا نسيت حتى أنه موجود ..

قلت فى ارتباك ، ربما لأهون عليه :

– ربما الأمر مجرد شك ..

– المثل يقول إن الزوج آخر من يعلم .. وهذا

صحيح..

أضاف بلهجة واشية بالألم :

– الجزار أسفل البيت صارحنى فى بساطة ، أنه

تصور أنى راض عما يحدث ..

وعلا صوته :

– تصور الرجل أنى أدارى على المرأة خياتتها ..

استعدت الأمر من بداياته : الكلمات المتشائمة ،

والمشكلات التى بلا حل ، والحديث فى الموت ، وكره الحياة

، وتوقع النهاية ، وتمنيها ..

قال :

– حكيت لك لأنك صديقى الوحيد هنا ..

وانترع ابتسامة فاترة :

– الصداقة هنا غير متاحة حتى بين الرجل والرجل ..

وتهدج صوته بالانفعال :

- الناس هنا أصدقاء بالمصادفة .. الظروف الطارئة
هى التى فرضت صداقتهم ..
ورحلت نظراته إلى بعيد :
- حين يعودون إلى بلادهم ينسون حتى مسقط نفسها ..
وأنا أهز رأسى :
- إلاّ هذا .. مسقط مدينة لا تنسى !..

لم يعد السائق الهندي يأتى إلى البيت ليقلنى بسيارته .
استغنيت بركوب سيارة ناصر . يقلنى إلى المكان الذى أريد
الذهاب إليه . صارت هى التى تقترح أن نذهب فى جولات
داخل مسقط ، أو خارجها . تصحب سيف ، أخاها الصغير ،
يجلس بجوارها فى المقعد الخلفى ، وأجلس إلى جانب ناصر
الذى يقود السيارة . تشى كلماتها - وتصرفاتها - بأنها لا
تريد للعلاقة أن تنتقل إلى أكثر من الصداقة . نخرج إلى
أحياء مسقط ، وإلى المدن القريبة . نجلس فى قاعات الفنادق
، نتكلم ، نسأل وتجب ، تسأل ونجيب ، نشرق ونغرب .
أشعر أنى أفيض بالعاطفة . تحتوينى اللحظة بما تمليه من
الهمس والتصرفات المحسوبة ..

تعددت جولاتنا . اتصلت أيام الزيارات ، والتأمل ،
والسؤال ، والتعرف إلى ما لم أكن شاهدته من قبل ..

بدأت زوينة مرشداً جميلاً ، تعرف الكثير ، وما لا تعرفه
تسأل - فى بساطة - واحداً من المارة ، أو الواقفين

..

التاريخ شديد الحضور . تلتقى به فى كل مكان : ثمة
القلاع والحصون والأبراج المبنوثة أعلى قمم الجبال ، فى
امتداد ساحل خليج عمان ، أو فى مدن الخليج ، على هيئة
دائرة أو مربع ، فوهاتها تتجه إلى البحر ، أو إلى الصحراء .
لا تخلو منها مدينة ، ولا قرية ، ولا انحناء طريق . وثمة
الشوارع الضيقة ، والبيوت ذات الطابع المتميز ، والأزياء ،
والخناجر المدلاة ، والروائح العطرية ، والبخور ..

سوق الظلام بمطرح ، أشبه بالقيساريات فى القاهرة
القديمة . بعض حاراته تكاد تكفى لعبور ثلاثة أشخاص ،
ومعظم دكاكينه مرتفعة عن الأرض ، تعلوها أسقف بامتداد
الشارع ، تغطى المكان بكامله ، والمصاطب فرشت بالسجاد
أو الحصر ، وتكومت على الجوانب - وعلقت - السجاجيد
والحصر الملونة والأنسجة والمعلبات وباروكات الشعر ،
وتربع البائع وسط البضاعة ، وتتصاعد منها روائح الهيل
والمستكة والصندل وزيت جوز الهند والقرنفل والبقول ،

وتتساعد رائحة العطور . ينظر العمانيون إلى جدواها نفس
نظرتهم إلى الثياب ..

قالت زويبة :

– المبانى قديمة .. لكن البضائع عصرية جدا- ..
واردات من أمريكا وإنجلترا وفرنسا واليابان ..
تملكنى الخوف وأنا أطل من نافذة السيارة على الوادى
، أسفل الطريق المفضية إلى مسقط القديمة . طريق صاعدة
، ضيقة ، تكفى سيارتين – بالكاد – فى الذهاب والعودة .
محطة الكهرباء تتناثر فيها صناديق خشبية ، وبكرات كابلات
، وحاويات ، وتحيط بها تلال حجرية ورمال وأعشاب برية ،
تعلوها امتدادات الجبال الصخرية ناحية اليمين . وفى مدى
النظر أبراج قلعتى الجلالى والميرانى ، وأفق البحر تتوزع
فى مداه جزر صخرية وسفن ..

لاحظت نظرتى المرتبكة . همست فى إشفاق :

- تخشى الأماكن المرتفعة ؟

وأنا أتجه بعينى إلى الناحية المقابلة :

– ربما .. لكن النظر إلى هذا الوادى يشعرنى

بالاختناق ..

سرنا إلى جوار مقابر المثاعيب ، فى الطريق إلى قلعتى الميرانى والجلالى وجامع الزواوى والخليج الذى يطل عليه قصر العلم . تل مرتفع ، تتناثر فوقه قطع الحجارة ، تشى بوجود موتى ، وثمة أغنية مصرية تتناهى من راديو قريب . شغلنى السؤال : كيف تفتن العائلة إلى أماكن موتاها؟! ثم أهملت الأمر حين قال ناصر إن زيارة القبور ليست فى حياة العمانيين لأية مناسبة ، ولا لأى سبب ..

علت قلعة الجلالى . مبنية على صخرة هائلة ، تحيط بها المياه من كل الجهات تقريبًا . ذات أبراج دائرية فى أطرافها ، والفتحات لاستخدام المدافع . المدخل الوحيد لها من ناحية البحر ، درجات صخرية منحوتة فى الصخر . أما الطريق الوحيدة التى تؤدى إليها ، فلا تسمح لأكثر من شخصين أو ثلاثة بصعوده معاً ..

قالت :

— عندما كانت هذه القلعة سجنًا ، فر منها سجين بحبل من البطاطين . لم يجد مكانًا ينزل إليه ، فانتحر !!
حلقت الجولات . سبحت فوق قصر العلم والخليج المائى والصخور المتناثرة .. طارت إلى الأفق البعيد ..

ثم وهى تتأمل متابعتى لصياد تدلت سمكة من طرف
الخيط الذى يحمله ، وعقد طرفه الآخر فى إبهامه :
— أنا لا أذكر قلعة زنجبار جيدا .. لكن الجلالى
والميرانى تذكرانى بها .. ربما لأن القلاع الثلاث صناعة
برتغالية ..

تخيلت الحياة فى القلعة كما كانت قبل سنوات .
العشرات من الأحياء الموتى ، الموتى الأحياء ، يعانون
أمراضاً خطيرة من بقائهم — أعواماً متصلة — داخل بئر
عميقة ، محفورة فى الجبل . يربط السجناء بحبل ليتسنى
إنزالهم إلى الجب ، ينزل إليهم الماء وكسرات الخبز —
طعامهم الوحيد — بالحبل كذلك . إذا تذكر السلطان السجين ،
أو ذكره به أحد . لا دفاتر ، ولا سجلات تحسب مدد الإقامة
. دلّى حبل فى البئر ، ونودى على اسم السجين ، يربط
وسطه بالحبل ، ويصعد إلى الحياة ..

كنت أنصت — مذهولاً — إلى الشيخ النبهانى . يروى
— بعفوية — عن السنتين اللتين أمضاهما فى سجن الجلالى .
تعلم على أيدى من سبقوه مبادئ القراءة والكتابة حتى أجادها
تماماً . ألف الرؤية فى الشعاع الضئيل الساقط من أعلى

الحفرة ، وألف سماع الكلمات والمناقشات والسؤال وتلقى
الإجابة والتعرف إلى القبيلة والأسرة وظروف السجن . من
دخلوا لأسباب سياسية ، شغلوا الوقت بتعليم من يريد القراءة
والكتابة حتى يجيدهما ..

— تعلمت على أيدي مساجين صار من أتيح لهم الحياة
أعز أصدقائي ..

القرم مرتفع جبلى ، يشرف على البحر . تصعد إليه
السيارات عبر شوارع ضيقة ، ملتوية . البيوت من طابق
واحد ، مبنية من القرميد الأحمر ، الأسقف المائلة تتخللها
مساحات الخضرة ، الحدائق الصغيرة ، والممرات الأسفلتية
المتقاطعة والمتشابكة ، والسحن تختلف — فى عمومها —
عما ألفت رؤيته فى وسط المدينة ..

قالت :

— هذا هو حى الإنجليز العاملين فى البى دى أو ..
يحرص الإنجليز فى البلاد التى يقيمون فيها أن تطل بيوتهم
على البحر ، أو تكون قريبة منه ..

فاجأتنى بالقول :

— كلمتك عن أقارب لى فى زنجبار ..

هزرت رأسى :

— غدا- أنتظر أحدهم .. ربما ظل فى ضيافة أسرتى
أياماً- ..

— هل أراك هذه الفترة ؟..

قلّبت أصابعها بما يعنى عدم التأكد ..

— هل تطول إقامته ؟..

— قدم بتأشيرة زيارة مدتها ثلاثة أشهر ..

اغتصبت ابتسامة :

— سأحاول أن أتحمل فراقك ..

قال بهجت حسان :

— المثل يقول : السجن سجن ولو فى جينة ..

أضاف بنبرة متباطئة :

— أفاد العرب زنجبار ، لكن الاستعمار يظل كذلك ..

قلت :

— حدثنى صديق [بدلت الصفة] عن مأساة طرد

العرب من زنجبار فى عام ٤٦٩١ ..

هز رأسه فى عدم اقتناع :

- فى رأى أن العرب أوعزوا للأفارقة بطردهم ..
— لا أفهم ..

وهو يشب بصدرة إلى الوراء :

— ما حدث فى ٤٦٩١ كان ضد استقلال العمانيين فى
زنجبار ، لكنه كان لصالح استقلال الزنجباريين أنفسهم .
أرفض تصديق أن أول معاهدة للرقيق فى ٣٢٨١ كان بداية
فقدان زنجبار لاستقلالها . ماذا يقصد بالاستعمار أصحاب
هذا رأى ؟ وماذا يقصدون بالاستقلال ؟ ..

— ما يحسب للسلطان قابوس أنه أفلح فى منع الخلافات
الطائفية والدينية .. وهو ما ساعد على ضياع زنجبار ..
كانت تضم الفئات نفسها التى تحيا فى عمان الآن : الإباضية
والإسماعيلية واللواتيا والفرس والبلوش وعبدة النار ..

وداخلت صوته نبرة أسى :

— عندما وقعت المذبحة فى زنجبار ، لم يكن للسلطان
من السيادة إلا العلم الأحمر فوق قلعة ممباسة . من لم
يستطع النجاة من العرب ولم يقتل ، اقتاده الزنوج لبياع
كركيق . فعلوا ما كان يفعله العرب فيهم مئات الأعوام ..
وهرش ذقنه فى حيرة بطرف إصبعه :

— كانت البداية طيبة .. ثم انتقل العرب العمانيون
بالأبهة وجمع المال .. فانتهى كل شئ ..

— ما حدث فى ٤٦٩١ هل كان باقتناع من الأفارقة أو
بإيعاز من خارج زنجبار ..

- تقصد جوليوس نيريرى ؟

وأدار نحوى ملامح مندهشة :

— لكن عبيدى كرومى هو أهم الزعماء الأفارقة فى
زنجبار ..

وسرح فى صمت ، كأنه يقلب الأمر فى ذهنه :

— هل كانت زنجبار بلاد الأندلس أم بلاد الهنود
الحمرة؟

قلت :

— إذا قبلنا التشبيه فإن الأندلس أقرب إلى المعنى ، لأن
العرب لم يلبأوا إلى إبادة العنصر الإفريقى فى زنجبار ..

ورنوت إليه بنظرة مستفهمة :

— ألاحظ أن السلاطين كانوا يحكمون مسقط من
زنجبار ، وليس العكس ..

أضفت فى تأكيد :

- كانت زنجبار هى عاصمة الحكم ..

قال :

— مهما اختلفت المسميات أو الوسائل ، فإن من حق

كل شعب أن يحكم نفسه بنفسه ..

وواجهنى بنظرة متحيرة :

— إذا تناسينا هذا الشرط فنحن نعطى الحق لليهود كى

يحكموا الفلسطينيين ..

قلت :

— جعلت اليهود فى فلسطين أشبه بالعرب فى زنجبار

.. وهذا غير صحيح ..

— أقصد الدلالة وليس المعنى المباشر . أعرف أن

العرب لم يطردوا أحداً ولا دمروا ولا أحرقوا . عاشوا إلى

جوار الأفارقة ..

ثم وهو يضغط على الكلمات :

— ولكن من حق الأفارقة أن يحكموا أنفسهم ..

وأطرق لحظة ، ثم رفع رأسه :

— ضع تحرك السواحليين والزنوج للتخلص من
العنصر العربى فى زنجبار مع تحرك الأفارقة لتحرير كل
بلاد القارة ..

ولوح بسبابته : —

أذكّرُك بأن زنجبار لم تصيح تحت الاستعمار
الإنجليزى إلا عندما رفض العرب التخلي عن تجارة الرقيق

..

وأظهر التصعب :

— المؤسف أن الإنجليز أفلحوا فى تشويه صورة
العرب لإصرارهم على تجارة الرقيق ..

ورفع عينيه فى تناقل :

— ما حدث فى فلسطين شهدته زنجبار من قبل .. باع
العرب أرضهم لليهود فى فلسطين .. وباعوا أرضهم للهنود
فى زنجبار ..

— أظن التشبيه خاطئ .. فلسطين عربية .. أما زنجبار
فقد كان يستعمرها العرب ..

قال :

— هذا صحيح .. لكن مأساة زنجبار — رغم خطأ
المقارنة — هى مأساة الخليج .. بدايتها تحياها الآن دول
المنطقة .. تحولت أحياء العرب إلى أحياء للهنود ..
وتحرك فى مجلسه :

- حتى اللغة العربية لم يكن يتحدث بها إلاّ الشيوخ ..
ثم وهو يتحسس ذقنه الحليقة :
— كما ترى ، فإن الهنود والجاليات الآسيوية قنبلة
موقوتة فى الخليج ، ربما أدى انفجارها إلى نتائج لا تخطر
ببال ..

وعلت وجهه سحابة حزن :
- رحم الله الأندلس والإسكندرونة وفلسطين !..
وبصوت أقرب إلى الهمس :
— ورحم الله الخليج !..

قلت :
— لم نلتق منذ فترة طويلة !..
— كنت مع زاهر .. قريبى ..
استطردت فى ابتسامتها الطفولية :

— هو ابن عمى ..

- أين أمضيتما الوقت ؟ ..

— أبداً .. فى البيت .. وزرنا نزوى وبهلا وسمايل ..

كنا واقفين أمام الجبل الذى ينتهى أعلاه بقلعتى الجلالى
والميرانى ، كأنهما نحتتا فيه . معلقتان فوق الصخور ،
تطلان على البحر ، وعلى المدينة القديمة ..

تجرات :

— هل تأذنين لى أن أسألك : ما مدى صلتك به ؟ ..

- أصارك بانى وافقت على خطبته لى ..

— لكنك لم تحدثينى عنه من قبل ..

— ربما ..

— من منكما يسافر إلى الآخر ؟ ..

— سأحاول الحصول على عقد عمل له هنا ..

ونستقر ..

لا تذكره فى طفولتها . استمعت إلى اسمه — للمرة
الأولى — حين قرأت لأمها رسالة منه . يعلن اعترامه القدوم
إلى مسقط . حدثتها أمها عن خطبتهما وهما طفلان . شكلت
له صورة من أحاديث أمها وأبيها والقادمين من مبابسة .

تحدثوا عن ذكريات مشتركة بينها وبينه ، لا تعرفها ،
وتضحك لها ..

قلت :

- هل بدا فى الصورة التى رسمها خيالك ؟

- بصراحة .. لا !

أردفت فى ابتسامتها الصافية :

- لكنه شاب طيب !

- هل يتحدث العربية ؟..

- والسواحلية ؟..

واتجهت عيناها للتساؤل فى نظرتى :

- لغة مزيج من العربية ولغات إفريقية قديمة ..

واتسعت البسمة فى وجهها :

- لازلت أذكر بعض الكلمات السواحلية ..

قلت :

- واضح أنك غير متحمسة لفكرة الزواج من زاهر ..

قالت :

— هناك مثل عمانى يقول : من يقترن بفتاة غريبة كمن
يشرب من إبريق لا يعرف ما فيه .. أما الذى يقترن بابنة
عمه فهو كمن يشرب من إناء يرى ما فيه ..
ومدت شفثها السفلى ، دلالة عدم الفهم :
- إنهم يرون فى زاهر ذلك الإناء الذى أرى ما فيه ..
قلت :

— هل توافقين على هذا الرأى ؟
رفعت كتفيها بمعنى التهوين :
- رأبهم وليس رأبى .. بالتحديد هذا رأى أمى !

صحت فى ناصر :
— أخطأت الطريق ..
وهو يضع على شفثيه ابتسامة واسعة :
— لا .. سأريك ما لا يتكرر إلاّ كل ليلة ثلاثاء .. ولا
يتكرر فى أى مكان آخر ..
أوقف السيارة على الرصيف ، فى الناحية المقابلة
لفندق روى ..

كانت الساحة الترابية الواسعة قد أحيطت بدشاديش ووزارات وبنطلونات وقمصان وجلابيب . يخلون الأعين لرؤية الراقصين يملأون الساحة برقصاتهم وصيحاتهم المغتاة ، وبالأهازيج . كانوا يرتدون دشاديش ملونة ، وتفوح منهم رائحة العطر . أسدلوا شعورهم المدهونة بالزيت على الأكتاف ، وكحلوا الأعين ، وصبغوا الوجنات والشفاه ، وخضبوا أيديهم وأقدامهم بالحناء . تعالت دقات الطبول ، وأصوات المزامير ، وإيقاعات الصنوج النحاس . وهنود وبنغاليون ، اتخذوا مواقع على الهضاب القريبة ، أو أسفل الجبال ، يتابعون – فى صمت – ما يجرى فى الساحة الترابية ..

ترايدت أعداد الداخلين فى الحلقة . وقفوا صفين متقابلين . تراخت الأجساد ، وانتصبت ، والتوت ، وتثنت ، ودارت حول نفسها ، وحول بعضها . اقتربت ببطء . تدافعت حتى تلامست . واجهت الحناجر بأغنيات خليجية الألحان ، غير مفهومة الكلمات ، يصحبها تصفيق وإيقاعات . صنعوا دائرة من أجسادهم وهم يواصلون الرقص . مالت الرقصة إلى السرعة . دار كل واحد من الراقصين حول

نفسه . سحبوا الخناجر من أغمدها . ضربوا بها الهواء .
قذفوها إلى أعلى ، والتقطوها وهم يدورون حول أنفسهم .
تقاذفوها فلا تسقط على الأرض ، ولا تصيب أحداً . أطلقوا
الصيحات والصرخات ، وتناغمت أصواتهم بالشعر النبوى .
سرت حمى الغناء والرقص فى أجسام الجميع . تتلوى
الأجساد التى لا تخلو من ليونة ، وتتثنى ، تقترب حتى تتقابل
الأعين ، ثم تتباعد . تطوق الأيدي الأكتاف . تتشابك الأيدي
والصدور والبطن والسيقان ، تتداخل ، وتتداخل الأصوات
المنتشبة . تدور الأجسام نصف دورة ، وتعود ، وتقفز إلى
أعلى ، تهتز فى اندفاعها إلى الأمام ، وفى ميلها إلى الورا ،
تدور ، وتندفع ، وتقفز ، وتهبط ، وتميل ، وتنحنى ، تبدو
حيات هائلة الحجم . ينفلت من الدائرة راقصان أو ثلاثة ،
يؤدون رقصتهم فى منتصف الدائرة ، ويعودون ، ليحل
آخرون مكانهم ، يقفزون فى الهواء ، ويدفعون صدورهم إلى
الأمام ، وظهورهم إلى الخلف ، تعلو أصواتهم بأهازيج لا
أتبين كلماتها . يتراقص اثنان أو ثلاثة فى تناثر باتساع
الحلقة الترابية ، يرقصون ، ويغنون لأنفسهم . يشكلون
دوائر متقاربة ، ومتباعدة . لا يلتفتون إلى الدائرة المحيطة .

حتى التعليقات التى تعلو بالسخرية لا يابهون لها ،
ويواصلون الغناء والرقص . تتشابك الأيدي ، وتتلامس
الصدور ، وتتقارب الشفاه بالهمسات والأنفاس الساخنة ،
وربما حمل الراقص زميله على ساعده ، ودار به حتى يوقفه
التعب ..

علا الإيقاع ، فزاد الراقصون من سرعتهم . يصفقون
بالأيدي ، يضربون الأرض بالأقدام ، يلزمهم الإيقاع
السريع ، يتكلمون بالأيدي والأقدام والأرداف وغمزات
العين . استغرقت فى متابعة الرقصات الغريبة كأنها حلم ..
كان الصمت يستغرق الحلقة الملتفة حول الراقصين ،
أو تتعالى التعليقات والضحكات والإشارة بالأيدي ..

ضائق الحلقة واتسعت ، ضاقت واتسعت . ثم هدأت
الموسيقا ، وهدأت الأجسام . حل صمت سادر . ومضى
الجميع إلى السيارات المتناثرة فى أطراف الساحة . كل شاب
ومن كان يراقصه ..

قال ناصر لملامحى المتسائلة :

- مثل كل المجتمعات .. توجد هذه الظواهر ..

وأشار إلى السيارات التي أثارت الغبار فى توالى
اندفاعها ناحية دوار دار سيت :
— هؤلاء دمامل فى وجوهنا ..

لحق عبد العال تبريره : مجتمع رجال ، والنساء لم
يظهرن — إلا متأخرا— فى المكاتب والأسواق والشوارع .
بعد أجيال قد تستقر الصورة ، تغيب اهتزازاتها ، تتوضح
ملاحها الصحيحة ، يحقق الاختلاط ثماره المرجوة ، يحقق
كذلك ما لا يرجوه أحد ..

اتجهت إليه بنظرة إشفاق :

- ولماذا يفعلون ذلك أمام الناس؟! ..

— الدمامل تظهر على البشرة وليس فى داخلها ..

لحق تبريره : مجتمع رجال ، والنساء لم يظهرن - إلا—
متأخرا— فى المكاتب والأسواق والشوارع . بعد أجيال
تستقر الصورة ، تغيب اهتزازاتها ، تتوضح ملاحها
الصحيحة . يحقق الاختلاط ثماره المرجوة . يحقق كذلك ما
لا يرجوه أحد ..

وهو يسلم منصرفا- :

- لا تقل لزويته إنى ذهبت بك إلى دار سيت! ..

أخليت وجهى لتساؤل ..
كانت ظلمة الطريق قد ابتلعت سيارته فى انحرافها إلى
اليمين ، وانطلاقها ..
بدا لى من الصعب أن يتعرف الوافد إلى سلوكيات
الحياة اليومية ، وما يجرى داخل البيوت . المجتمع المفتوح
أمام جاليات وافدة ، كثيرة ، مغلق على ناسه ، فلا أحد يطل
على ما بالداخل ..
كانت تفصلنى عن الجميع مسافة كبيرة ، وأشعر
بالغربة ، كأنى نقطة زيت ترفض الذوبان فى الماء ..
أنا - فى هذه المدينة - مجرد مصادفة ، عابر طريق
، يمضى لشأنه . أشياؤه فى الحقائب ، وليس على أرفف
الدواليب ، ولا فى أدراج المكاتب ..

رأيتهما فى دوران دار سبت . أبطأت سيارتها
للسيارات القادمة من يسار الدوار . كانت تقود ، وجلس إلى
جوارها . كلمتنى عن زاهر ، لكنها لم تقدمنى إليه ، ولا
دعت أحدنا للقاء الآخر ..

حدجته بنظرة متأملة : فى حوالى الثلاثين ، تشى
جلسته بطول قامته . شعره منكوش ، وبشرته سمراء ،
ووجهه ساكن الملامح . يرتدى بلوزة قطنية ، وبنطلونًا من
الجينز ، وألقى بالحقيبة الجلدية الصغيرة إلى جانبه ..
لمحت ناصر يتابع حركة المصعد الزجاجى ، فى
صعوده وسط بهو فندق مسقط " انتر كونتيننتال " الواسع إلى
الطوابق العليا :

– رأيتكما هذا الصباح ..

أردفت للتساؤل فى عينيها :

— أنت وزاهر ..

— أين ؟ ..

— فى دوار دار سيت ..

— آه .. كنا عايدين من إدارة الجوازات ..

وأشاحت بيدها فى ضيق :

— يبدو أنه لا فائدة ..

وشردت بعينين ساهمتين :

— لم يعد أمام زاهر إلاّ تجديد تأشيرة الإقامة ..

— والجنسية ؟ ..

كان ناصر قد ترك الملعقة والشوكة والسكين .

ضغطت قبضته على كمية الأرز ، كورها ، ودفع بها إلى

فمه . أهمل السمن المنساب إلى مرفقيه ..

— فاتته فرصتها ..

وتعثّر ظل ابتسامة على شفثيها :

— ربما حصل عليها بعد سنوات ..

ماذا أحب فى هذه الفتاة ؟ ..

رفعت رأسى من الطاولة ، ونظرت إليها . بدت عيناها
أجمل ما رأيت . ضغطت على يدها . همست وهى تومئ
ناحية ناصر :

— لسنا وحدنا ..

كانت أيدينا قد تلامست عن غير قصد . شعرت بلمس
بشرتها الناعم تحت راحتى . سحبت يدى ، وإن ظلت أمينتى
فى أن ألمس يدها . أمد يدى ، تمد يدها ، تتعانقان . أن أملك
القدرة لأعلن لها حبى ..

دربت نفسى على كلمات ، أفتح بها النقاش إلى الطريق
الذى أريدها ، ثم أزمعت إلاّ أعد كلمات مسبقة ، وإنما أقول
ما أشعر به ، ما يواتينى من عبارات تنبض بالصراحة . فى
عينها ما يشى بأنها تحبنى ، استجابة مكتومة لا تفصح عنها
، لكن شيئاً ما فى ملامحها ، فى تصرفاتها ، حتى فى
عفويتها المنطلقة ، يصدنى ، يمنعنى من أن أقدم على ما
يشعرنى بالذنب ..

أنا مسكون بهذه الفتاة . أرى وميض النجوم فى عينها
، وأستمع إلى النغمات الحلوة فى صوتها ، وأتطلع إلى بهاء
الشمس فى ابتسامه وجهها . هى جنية البحر التى أتوق لأن

تجذبني إلى عوالم الخيال والسحر والأسطورة . هي ست
الحسن والجمال ، وأنا الشاطر حسن ، هي الأميرة سندريلا ،
وأنا الشاب الفقير ..

بدت كل الأماكن النى نستطيع أن نلتقى فيها – حتى
فى صحبة ناصر والصغير سيف – محدودة للغاية : فندق
مسقط انتركوتيننتال ، فندق الخليج ، شاطئ السيب .. إذا
سرنا – بمجرد نزولنا من السيارة – تتقدمنا هى والصغير .
نتبعهما – ناصر بعفوية ، وأنا أتظاهر بها ! – يظل الصغير
بجوارها ، يظل كرسيه خالياً إن مال للعب . تفصل بيننا
الطاولة ، دائرة ، أو مستطيلة ، بينما ناصر بجوارى يمارس
شروذ التأمل ..

لم تكن الرغبة تفارقنى ، لكنها تصطم بمصدات
الخوف من رد الفعل . فى بالى ، ما أقدمت عليه حين
تصورت سهولة قطف الثمار ..

كان إيقاع الشبق يعلو فى داخلى . أجاوز البراءة
الظاهرة النى استرحت إليها . أدنو منها ، وتدنو منى . لم
يعد ثمة صيف ولا خريف ولا شتاء ولا ربيع . اختلطت
الفصول الأربعة فى فصل واحد . أتوق إلى جسدها ،

وأتصور أنها تتوق إلى جسدى . تتلامس نيران الرغبة ،
فيشتعل الجسدان . تنبثق المياه من ينابيع الجبل الأخضر ،
تسرى فى شرايين الأفلاج الضامئة . نقتحم الغابات ، نعلو
الجبال ، نتسلق النخيل ، نتسلل إلى الجزر المسحورة .
تصطم الكواكب والنجوم ، ويتطاير جسدانا فى الفضاء
ذرات صغيرة متناثرة من اللذة . وضبطت نفسى — لحظة —
أضرب الحائط بقسوة أدمت راحة يدي المضمومة ، كأنها
تفرغ شحنات من الرغبة المواراة فى داخلى ..

أغمض العينين — فى حضورها — وأحلم . أفتحهما
على استعادة ما جرى ، وأن الواحة الظليلة ربما انتهت إلى
سراب ..

لا أجرؤ على مجرد التلميح . تبدو لى النهاية قاسية .
أدرك أن المسافة بينى وبينها لا يمكن أن أتجاوزها ، أن
أحاول تجاوزها ..

هل أن الأوان كى أبوح لها ؟

متى يؤون الأوان كى أبوح بها ؟..

لم أسأل نفسي _ لحظة _ ما إذا كان لحبنا نهاية . أنا
أحبها ، وهى تحبني . هذا هو المبدأ والمنتهى . ماذا بعد ،
سؤال لا يشغلنى ، ولا يهمنى ..

خمنت من التوتر البادى على ملامح ناصر ، أن لديه
ما يريد التكلم فيه ، ما يريد البوح به ..
قال لنظرتى المتسائلة :

- واجهت الموت أمس وأنا فى الطريق إلى قريات ..
صحبنى إليها مرة واحدة ، واعتذرت فى دعواته
المتوالية ، التالية . الطريق إليها لولبية ، صاعدة بين
المرتفعات والجبال ، تطل - من اليمين - على أودية تتباعد
فيها بنايات صغيرة وزراعات وأشجار وبيوت عارية
الأسقف متناثرة فى امتداد الأرض الرملية ، وإلى اليسار
الجبل المصمت بنتوءات الصخور ، وبروزها ، واحتراقها
فى أشعة الشمس اللاهبة . دار مع الجبال ، جبال دائرية لا
تنتهى . علا ، ودار ، وعلا . مضى إلى الأمام ، ومال إلى
اليمين ، وإلى اليسار . المنعرجات لا تنتهى ، والعجلات تنز

فى انحناءات الطريق . الصخور تضوى فى ألق الشمس ،
وتبين الظلال والعتمة داخل التجاويف . لم أفلح فى أن أرى
القمة ، لأن رؤوس الجبال كانت تتوالى ، متفاوتة الارتفاع
والاقتراب والتباعد . كأنها بلا نهاية . تمتد إلى نهاية الأفق .
تتخللها ممرات ووديان وكثبان رملية وبيوت متناثرة
وزراعات قليلة . تبدو المرئيات فى أسفل كأنها دمي صغيرة
. اتجهت بنظري إلى الأمام . تجنبت التطلع إلى أسفل فلا
يصيبني دوار . أتوقع – وأخشى – أن تصطدم السيارة
بالصخور . تتحطم ، أو ترتد إلى الهوة الواسعة باتساع
الوادي من تحتنا ..

– ألا يوجد طريق أخرى ؟ ..

– هذه هى الطريق الوحيدة منذ آلاف السنين ..

ثم وهو يزيد من تحكمه فى القيادة :

– لم تكن مسفلتة حتى عامين مضيا ..

بدا أنه يندفع إلى نهاية الطريق المطلة على الفراغ ، لكنه
مال – فجأة – وأنا أغمض عيني – فى طريق صاعد
، جديد . يعلو الجبل إلى يساره ، والسهل الذى تختلط فيه

السهول ، يتخلل جبالاتٍ متفاوتة الارتفاعات ، وتتناثر فيه بقع من الخضرة والبيوت الصغيرة ..

تساءلت : ما الذى يغريهم بالحياة فى هذا المكان ؟ ما الذى يدفعهم للابتعاد عن العالم ؟ وماذا يفعلون لو أن الجبل انهار على الطريق ، فسده لأيام أو لشهور ؟ كيف يحيون فى الخطر فى صعودهم إلى الجبل ، ونزولهم منه ؟ ..
_ لماذا تحيون هنا ؟ .. أليست الحياة فى السهل أفضل ..؟

_ نحن نحيا فى هذا المكان منذ آلاف السنين ..

_ بالقرب من السماء ؟ ..

اختلاط الصخور بالرمال _ من تحتنا _ إلى مدى البصر . لا بشر ولا خضرة ولا دلائل حياة ، فيما عدا نباتات صغيرة ، متناثرة ، كالأعشاب ، تسلت بين قطع الصخر ..

ابتسمت عيناه البنيتان :

_ لم تقرأ ابن بطوطة ؟ .. تحدث عن رحلته إلى

قريات ..

ودهمه جيشان عاطفى :

- اللهجة والمفردات التي يتحدث بها العمانيون كانت
للأبناء قريات وحدهم ..

لم أقاوم اللهفة :

- هل تعطلت سيارتك ؟ ..

هز رأسه بالنفى ..

قدمنى ناصر إلى أبيه وأمه . أشار إلى أولاده وهو
يقدمهم بأسمائهم . بنت وولدان أعمارهم بين السنتين
والسنوات الخمس . تبادل كلمات هامسة من أمام الباب
الموارب . خمنت أنه يكلم زوجته . الأب فى حوالى السبعين
. وجهه عظمى مستطيل . تطل من فتحتى الأنف شعيرات
بيضاء . خضب لحيته بحناء شديدة الحمرة . خمنت من
اتساع الدشداشة أن جسده كان ممتلئاً . تكشف فتحة الصدر
عن شعر أبيض كث . فى ظهر يده أثر حرق ، أو كى بالنار
..

عدلت الأم فوق رأسها اللحاف الأصفر المنقوش برسوم
صغيرة ، وغمغمت بما لم أتبينه ، ثم انطوت على نفسها ..

- هل اصطدمت بسيارة أخرى ؟ ..

— أبدأ .. أثناء صعودى بالسيارة فوجئت بامرأة ..
سيدة .. فى حوالى الثلاثين .. تقف فى طريق السيارة ..
طلبت أن تصحبنى إلى المدينة ..

هزرت رأسى استحثه على مواصلة الحديث ..
— ركبت إلى جوارى .. ثبتت نظرتها إلى الأمام
وظلت صامتة .. ثم أحسست بحركة إلى جوارى .. نظرت
بطرف عينى .. فإذا بها قد استطالت حتى وصل رأسها إلى
سقف السيارة ..

همست :

— عفريت !..

— لا أعرف .. لكن قلبى وقع فى قدمى .. لهثت
بالمعوذتين وآية الكرسى ، حتى اختفت المرأة تماما .. خلا
الكرسى بجوارى منها ، دون أن تفتح الباب ، أو تقفز من
النافذة ..

ثم وهو يجسد بيديه ما لا أتبينه :

— كأن المرأة تبخرت فى الهواء .. كأنها لم تكن جالسة

إلى جانبى ..

وأغمض عينيهِ ليستجمع نفسه :

— تهيات للقفز من النافذة .. لكن المرأة لم تعد فى
مكانها .. تبخرت تمامًا .. اختفت ..
قلت :

— وماذا فعلت ؟ ..

— لا أدرى كيف واصلت القيادة حتى وصلت قرىات
وفمى لا يكف عن تلاوة آيات القرآن ..
- ربما كان مجرد طيف صنعه الظلام والخيالات ..
- كلمتنى وكلمتها .. هل كنت أكلّم خيالاً- !؟

ألفت سماع أحاديث السحر والتنجيم ومعرفة الطالع .
تحدث الشيخ النبهانى عن جبل خميلة بالقرب من بهلا . ما
تزال تسكن فيه إحدى الساحرات . غلب التأثير على صوته
وهو يقول : الأمهات المسكينات يعطين الأبناء جرعات قليلة
من الزئبق لحمايتهم من كيد الساحرة !..

قال ناصر كالمتمذكر :

- قابلت زويينة فى طريق المطار .. قالت إنها مشغولة
هذه الأيام ، فى إنهاء أوراق قريبها ..

أدركت أن زاهر بينى وبينها . يصعب أن أفكر فيها
دون أن أفكر فيه . أتخيلها ، فأتخيله . هى معه ، وهو معها

. لا يفترقان إلا للنوم ، وتنبهت : هل تكون سندريلا قد
خلعت حذاءها ، لأن الأمير وعدها بتحقيق الأمنية؟!..

لم يعد ناصر الذى أعرفه ..
كان يعود إلى قريات قبل الغروب ، أو يقضى الليل فى
مسقط . يعانى الإحساس بالمطاردة . يتصور المرأة فى
صعوده إلى الجبل . يتوقع ظهورها فى انحناءات الطريق .
إن لم يقف تؤذيه بما يغيب عن تصوره . أضاف إلى قلة
كلامه شروداً فى مدى لا أتبينه . يتأمل ما يراه هو وحده .
يكتفى بمجالستى ، فيسهل على زوينة أن تكون ثالثتنا . لو
أنه غاب ، أو اعتذر ، هل أكتفى من زوينة بوقفها القلقة
أمام باب البيت ، أم بتسللها الخائف إلى الداخل ؟..

قالت :

— زاهر ..

واختلجت عيناها :

— اختلفنا ..

— لماذا ؟

— يريد أن يصحبني إلى زنجبار ..

— هل رفضت ؟..

— طبعاً- .. أحن إلى زنجبار .. لكنني لا أستطيع أن

أفارق أسرتي ..

ثم وهي تحاول السيطرة على مشاعرها :

— أصرحك كذلك بأني لم أعد أتصور أن أبتعد عن

مسقط ..

— لعله يرفض هو أيضاً- أن يبتعد عن وطنه ..

— عمان هي وطني ووطنه ..

— لكن جنسيته ليست عمانية ..

حركت سبابتها إلى أسفل :

— هو الذي يجب أن يبقى هنا ..

وشردت كأنها تحادث نفسها :

- أنا حتى لم أعرفه بما يجعلني أحزن لابتعاده ..

قلت مجاملاً- :

— لكنكما خطيبان ..

أشاحت بيدها :

– فليتزوجه من خطبوه لى !..

قالت :

– زاهر ..

– ماله ؟ ..

– سافر هذا الصباح ..

ورفعت عينين تعانين ما يشبه التوتر :

– وجد أن فرصة حصوله على الجنسية ضعيفة ..

خشى أن يفقد عمله فى ممباسة ..

قلت لمجرد أن أبدى رأياً :

– قرار متسرع ..

– عصفور فى اليد ..

– وعلاقتك به ؟ ..

– المستقبل أماننا ..

وأشاحت بيدها :

– هذا رأيه ..

والتمعت عيناها بالدمع ..

أين تستقر مشاعرها ؟ ..

امتدت أصابعها إلى عينيها ، وامتدت أصابعى إلى يدها .
تلامست الأصابع . تشابكت . سرت فى ذراعى ، فى
جسدى ، نشوة لم أحسها من قبل . رفعت يدها إلى فمى ،
وقبلتها . تمنيت لو امتدت اللحظة إلى الأبد . يظل أمامى
الشعر الذى أجادت تصفيفه ، والعينان الواسعتان ، والأنف
الدقيق ، والشفتان الرقيقتان كورقتى وردة ..
هل أضم ذراعى حولها ، وأضمها ؟ هل أقبلها ؟ وهل
توافق على تقبيلى لها ؟ وهل أودع هذه الجميلة قلبى ، لا
تغادره ؟..

تجمعت مشاعرى فى هذه اللحظات النورانية . تبدلت
نظرتى إلى من حولى ، وما حولى . بدت الأشياء فى غير
الصورة التى ألفتها . لم تكن مسقط جميلة كما كانت فى ذلك
اليوم . اختلفت الشوارع ، واختلفت الوجوه التى اعتدت
رؤيتها ..

لست أذكر أين ، ولا متى ، قرأت حديث شاب عربى
عن حبه لفتاته : أرى القمر على جدارها أحسن منه على
جدران الناس . شمس مسقط – فى ظل حبى لزويينة –
تختلف عن الشمس نفسها قبل أن تدخل زويينة حياتى .

عرفت معنى الربيع للمرة الأولى : قدمت ست الحسن من
عالمها المسحور . عبرت الجبال والتلال والوديان والشعاب
والأفلاج . ترامت الخصرة فى مدى الأفق ، وأنبتت
الصخور أزهاراً متداخلة الألوان بما لا حصر له ، واختلطت
الأشجار والنخيل والزهور وقطرات الندى ورائحة العطر ،
وبدت زرقاة السماء فى قمة صفائها ، وتألفت مياه البحر
بضوء الشمس ، وحلقت أسراب من الطيور _ تغنى _ فى
أشكال لم أرها من قبل ، وتماوجت فى المدى تكوينات لا حد
لجمالها ، وعلت أظلاف الماعز بإيقاع الرقصات ، وتناهت
صفارات البواخر فى ميناء قابوس بما لم يسبق لى سماعه
من ألحان ، واستحالت شمس الظهيرة خيمة هائلة من الدفء
والطمأنينة ، واختلطت رائحة البخور بشذى الورد والفل
والياسمين ..

أنا الشاطر حسن ، وحببتي ست الحسن والجمال . لم
أعد أتصور أنى أحيا بدونها . حتى العمر الذى عشته قبل أن
التقى بها ، لا أعترف به . تمنيت لو أنى احتضنتها فى
صدرى . تتحول الصخور المدبية إلى ملساء ، تتسلقها ،
تأمل مسقط الممتدة من تحتنا . أخوض البحار السبع .

أصارع الوحوش المفترسة . أحصل لها على لآلى الخليج .
أصعد بها إلى الكواكب والأقمار والنجوم . يلفنا الضياء ،
يحتوينا الألق ، وتنساب موسيقا شجية الإيقاع ..لو
أننا انطلقنا فى قارب يمضى بنا إلى المدن والجزر
البعيدة . لو أن أصواتنا علت بالغناء ، وأجسامنا صرخت
بالرقص . لو أننا استعدنا كل الكلمات الجميلة ، وتعلمنا لغة
الرمال والصخور والشمس الحانية ..

قلبت أوراق الرواية التى أوشكت أن أتمها ..
كان القلم قد جرى فيها بالإضافة والحذف . تغيرت
الصورة التى كانت عليها حين قدومى - للمرة الأولى - إلى
مسقط . غابت شخصيات ، وحلت شخصيات أخرى ،
وتبدلت الأحداث تمامًا .

متى يشعر المرء بالغربة ؟ ومتى يغيب ذلك
الإحساس؟..

هذه المدينة التى لم أكن أراها إلا ساكنة ، مقبضة ،
مملّة ، تكشف الآن عن ملامح لم أتعرف إليها من قبل . بدت
مدينة أخرى غير المدينة التى قدمت إليها منذ سنتين ، فلم
أحبها ..

أبدت ملاحظة عن المدينة التى كأنها تولد . مسقط تكبر
، وتتسع - ملامحها تكتمل يوماً بعد يوم ، أو أنها تكتسب
ملامح لم تكن موجودة من قبل . الجرافات تزيل بنايات
مسقط القديمة . تتحول إلى أرض تمتد أمام قصر العلم . لا
يبقى سوى جامع الزواوى وجامع الخور وبيت السيد نادر
وبنايات أخرى قليلة ، حديثة ، والمقابر أعلى الجبل فى باب
المثاعيب . ظهرت الشوارع الجديدة الواسعة والدورات

والأرصفة والكبارى والحدائق وعلامات المرور والعمارات العالية والفيلات والشركات والمطاعم ومحال الملابس والأثاث والذهب . البيوت على النظام العماني والأوروبي . تضئ الأنوار كل النوافذ فى البناية ، فأعرف أنه تم إنشاؤها ، وأنها معروضة للإيجار ، ومسكن المدرسات فى شارع روى لم يعد بمفرده فى الأرض الرملية . أحاطت به بيوت من طابق واحد أو طابقين . حتى السفارات بدأت فى إقامة بنايات جديدة لها فى منطقة القرم ، وتناثرت الفيلات والقصور على جانبى طريق المطار . بدأت الشوارع – للمرة الأولى – تعرف أسماءها . رجال من التاريخ العماني القديم . وعرفت إعلانات النيون مواضعها فوق الأسطح وأعلى البيوت . امتدت أحياء المدينة ، واتسعت ، وإن ظلت الفراغات كثيرة ..

حبيبتى ست الحسن والجمال . أتكلم وتنصت ، تتكلم وأنصت . تتشرب عيناى كلماتها وملامحها . لا يجتذبنى إليها شئ محدد . عيناها اللوزيتان ، الواسعتان ، وابتسامتها الطفولية ، وعفويتها ، وشخصيتها الأسرة .. ذلك كله جعل منها الفتاة التى اجتذبتنى . لم أعد أتصور أنى أعيش بدونها

. أشعر _ أحيانا_ _ أننا وحيدان فى هذا العالم ، وأن العالم
ملك لنا ..

لم أتدبر الكلمات حين بادرتها بالقول :

- هل قال لك أحد قبلى إن عينيك جميلتان ؟..

هممت بأن أعانقها ..

كأنها عرفت ما يدور فى نفسى . رمقتنى بنظرة أمرة :

لا تحاول !..

فكرت فيما قد يلى الفعل ، فوأتت خاطرى ..

الزمن !..

كم أمضيت فى مسقط ، وكم يتبقى على موعد الإجازة

؟

لم يعد هناك وقت لأتعرف إليه . غاب الإحساس
بالوقت ، غابت الأشهر والأسابيع والأيام والساعات . لم يعد
إلاّ اللحظة الطويلة ، القصيرة ، الممتدة . اكتفيت بهذه
المحبوبة السمراء عن كل الدنيا ، لا يشغلنى شئ سواها . لا
القاهرة ولا مسقط ولا الجريدة ولا الأصدقاء . هى البدء
والمنتهى . هى الواحة فى ظل الجبال اللاهبة ، فى هجير
الصحراء المترامية . صحراء تتسع باتساع العالم ، فلا

تحتوينى الطمأنينة إلاّ فى تشرب ملامحها الطفولية ،
وصوتها ، وانفعالاتها ، ونظراتها . بددت إحساسى بالوحشة
، ألغته تمامًا ..

كنت أكنم أمنيته بأن أحيطها بساعدى ، وأحتضنها .
أبتلع شفتيها الممثلتين . لا أتركهما حتى أرتوى ..

قررنا - فى صمت - أن يكون كل منا للآخر . أن
يستغنى به عن العالم . تكلمت النظرات وارتعاشات الأيدي .
وكنت أغلق عيني على ملامحها ، وأنا ..

عدت إلى كتابة الرواية التى تركت القاهرة قبل أن
أتمها . تبدلت - وأنا أكتب - شخصية البطل . لم يعد ذلك
الساخط ، الناقم ، المتطلع إلى ما لا يستطيع تبيين ملامحه ..
كانت جلساتنا - بمفردنا - تطول ، فلا أشعر

بالارتباك . ضاقت الفواصل ، أو انمحت . اختفى التوجس
والحذر . اعتبرها الصديق الوحيد الذى أستطيع أن أكلمه فى
موضوع يهمنى . لم أعد أسأل نفسى : متى تلتقى أصابعنا ،
وتتشابك ، فى اتكائنا على الطاولة ؟ .. لم يعد فى تلامس
أيدينا ما يثير الحرج . لم تعد تبعد يدها بما يدل على أنها
تنبهت وتعالج الخطأ . تربت ظهر يدي براحتها . نتصافح

- بعفوية - تعبيراً عن اتفاق الرأي . تمد يدها لأعينها على
النزول من السلم الخشبي . تظل الأصابع متشابكة حتى بعد
أن تطأ قدماها الأرض ..

لم تعد تحدثني عن زاهر ، ولم أعد أسألها عنه ..
لمحت فى يدها ورقة مطوية ..

- رسالة ؟ ..

هزت رأسها ..

- من زنجبار ..؟

هزت رأسها ..

ماذا ستكون عليه حياتى فى مسقط ، لو أنها خلت منها
. هل أعود إلى الوحشة ، ومعاناة الغربية ؟ ..

- هل زاهر بخير ؟ ..

- قد لا يأتى هذا العام .. مشاغله كثيرة ..

قالت لها فى رسالتها التى لم أتوقعها ، إنها عملت
سكرتيرة فى مكتب مدير شركة استيراد ، وإنها تنوى
المساعدة فى شراء بعض ما يحتاجه بيتنا . أعدت قراءة
الكلمة . حددت البيت بأنه " لنا " . لم تشر إلى أمها ..

قالت زويبة :

- هل ظروف العمل فى المطبعة على حالها ؟
أدركت أنها لا تريد الدخول من باب هى التى واربته .
قلت :

- تغيرت الظروف كثيرًا .. انتظم العمل ، وأجد وقتًا
للقراءة ، وسماع الراديو ، والراحة ..
أضفت بلهجة ذات مغزى :
- وأخرج مع الأصدقاء ..
قالت زويينة :

- هل تدعونى إلى سينما ستار ؟ .. تعرض فيلمًا عن
الزومبى ..

- الزومبى ؟ ..
- موتى يأكلون لحم البشر ..
- أدعوك .. ولكن ماذا ستشاهدين ..
احتوتنى بنظرة مشفقة :
- لا تحب العنف ..
- أكره القرف ! ..

هذه الفتاة خلقت لى ، وأنا خلقت لها . زاهر قريبها .
فليظل كذلك . لا معنى لأن يتجاوز القرابة . ليس كل

الأقارب محبين . المثل يتحدث عن ابنة العم التى لا تصلح
للإنجاب ..

ناوشنى السؤال : ثم ماذا ؟.. ما طبيعة امتدادات
العلاقة بين جميلتى الفاتنة وبينى ؟ هل يظل الحب حبا بلا
نهاية ؟ وهل تقبل الزواج إذا عرضته عليها ؟ وهل تظن أنى
سأظل فى مسقط ، أو أنها لن ترفض السفر إلى القاهرة ؟..
بدا لى المستقبل غائب الملامح . شغلتنى اللحظة ،
أيامنا الحالية . لم أتحسب للمستقبل ، ولا حاولت أن أتصوره
. لم أتصور مستقبل ما نحن فيه ..

— الأستاذ موجود ..

افتقر الفم الخالى من الأسنان عن ابتسامة واسعة :

— أنا الأستاذ ..

هل هو بالفعل ذلك الذى يستقبلنى وراء مكتبه ؟ ..

كان وجهاً آخر غير الوجه الذى ألتقى به ، وأعرفه .
نزع النظارة الطبية السوداء ، وطقم الأسنان ، وأهمل
صباغة شعر رأسه ولحيته ، فتداخل البياض بالسواد فى بقع
كالندف المتلاصقة ..

سبقنى إلى الداخل .

الحجرة الواسعة أيمن الطابق الأرضى فى البيت ذى
الطابقين . لصق الجدار مرتبة من الأسفنج بلا ملاءة .
أمامها — إلى اليسار — كومودينو عليه تليفزيون وفيديو ،
يفتحهما ، ويغلقهما ، ويغير القنوات ، بريموت كنترول .

وإلى جانبه راديو لم أره — فى زيارتى المتباعدة —
يستخدمه . وثمة طاوولات متناثرة ، عليها أطعمة ، ومعلبات
، وأكياس مفتوحة ومغلقة ، وبسكويت ، وطبق ممتلىء
بالحلى العمانيّة ، ودلايات قهوة ، ومياه معدنيّة ، وترامس
تحفظ الماء البارد والساخن ، وعلب مناديل ورقية . حتى
الخبز كان له أنيته المستقلة ، وإن بدت الكتب أهم ما فى
الحجرة . كتب تحتل الأرفف والجدران ، وتناثرت على
الوسادة والمرتبّة والأرض ، لا تبين عن نوع قراءة محدد .
روايات ودواوين شعرية وتاريخ ودراسات أدبيّة ، داخلتها
أوراق وأجندات صغيرة . وعلى الجدار صورة كبيرة
للسلطان يمتطى جواداً ، وفى الجدار المقابل لوحة من الخط
الكوفى تتضمن آيات قرآنيّة . بدا لى أنه قد خلق لنفسه عالماً
خاصاً ، فهو يحرص على أن يكتفى بما فى الحجرة . لا
يطلب شيئاً من خارجها ، ولا ينادى على أحد .
أشار لى بالجلوس على حشية بالقرب من الباب . تربع على
المرتبّة الإسفنجية بما كان يدهشنى ، وإن ألفتة ، فقدماه
وساقاه تتداخل فلا تبدو ركبتاه على المرتبّة . يظل —
لساعات — فى هذه الجلسة ، لا يبدلها . أشارك فى الجلسة

بالصمت . أتأمل جلسته المتربعة ، كأنه ألقى على ركبتيه .
يبدل بالريموت كونترول قنوات التليفزيون ، يصب الماء
الساخن من الترمس فى الكوب الفارغ ، ثم يضع السكر
وكيس الشاى . الخواطر تجر بعضها . ربما قطع كلاماً
ليصله بكلام مختلف تماماً . قرأ لى أبياتاً من الشعر النبوى ،
عن المستشار البريطانى المقيم فى قصر السلطان . يمسك
الخيوط فى يده ، ويجيد تحريكها ، وإن صدرت المراسم
بتوقيع السلطان ..

قال :

— أيقظتك من النوم ؟ ..

ظللت صامتاً ، وإن اغتصبت ابتسامة لم تفلح فى إخفاء
ما يعتمل فى نفسى من قلق :

— كتبت بعض الأبيات الشعرية ..

كان يطيل التحدث فى القضايا الثقافية ، وإن لم يطلعنى
على كتابات له . أشار إلى أبيات من الشعر على أنها من
تأليفه ، لكنه لم يشر إلى ديوان له ، أو حتى قصائد نشرها
فى دوريات .

خمنت أنه ثمل . يفرط فى الشراب ، فنغيب الذاكرة .
ينسى - بعد أن يفيق - كل ما يفعله . ولم يكن يفعل - فى
الحقيقة - شيئًا مؤذيًا . يكتب شعرا- ، يشاهد أفلاما- جنسية ،
يتصل بمن تطالع عيناه أرقام تليفوناتهم فى الأجندة ..

الخمير موجودة فى الفنادق ، وفى البيوت ، وحتى داخل
مساكن الضباط والعاملين المدنيين فى المعسكرات ، لكنها
ممنوعة فى العلن . السجن عقوبة من توجد داخل حقائبه فى
المطار ، أو تشم الشرطة رائحتها فى فمه ، فى مفارق
الطرق ، أو عند الحوادث ..

غالبت النوم ، وأنا أظهار بالإنصات .

لم يعد هو الرجل الذى أعرفه . أستأذن من السكرتير
فى لقائه . يحدد لى الموعد حالا- ، أو فيما بعد . أسأل
ويجيب . تجذبنى طريقة كلامه . ميله إلى الموضوعية ،
وعدم السرعة فى إصدار الأحكام ..

دارت الخمير فى رأسه ، فتحول إلى إنسان لا أعرفه .
انطلق فى الصياح والغناء ، وأجهش بالبكاء ، قال ما لم أكن
أعرفه ، واستعاد أبياتًا من الشعر النبوى تدين وجود
المستشار الأجنبى فى أخطر المواقع . وقال كلمات غير

واضحة ، وغير مترابطة ، وكلمات بذينة ، ولوح بيده ،
ونقر على الطاولة أمامه بأصابع مرتعشة . وشخط ، ونطر ،
وحدق فيما لم أتبينه ، وعلا صوته فيما يشبه الصراخ . أخذته
السكر ، فغاب عن كل ما حوله ، أو عاش فى عالم صنعتته
له الخيالات ..

اكتفيت بتأمل تصرفاته . تظاهرت بمتابعة توالى الكلام
، لا أتابع كل ما يقول . شردت ، ومضت خواطرى إلى
آفاق بعيدة ، وإلى جزر أحيا فيها بمفردى . ومضت فى
الذاكرة وجوه تشابكت ملامحها ، واختلطت ..

قبل أن أميل بالسيارة إلى طريق مطرح ، تبينت - فى
غبشة الفجر - يد الشرطى تلوح بالوقوف ..
وقفت ..

كنت أحرص على أن أحمل فى جيبى تصريح العمل
والإقامة . أتوقع السؤال - فجأة - : أين أوراقك ؟ ..
- ما السرعة التى تسير بها ؟ ..
- لا أعرف .. ربما ثمانين ..

— أنت تسير فوق المانة .. مع ذلك فإن سرعة الطريق
(وأشار إلى اللافتة على جانب الرصيف) لا تزيد عن
أربعين ..

كانت عيناى تغالبان النوم . لم أحاول أن آخذ وأعطي
. تركت له " الليسن " ، وواصلت السير ..
تواصلت ضحكاتها وهى تنصت إلى ما حدث ..
- وكيف تطمئن إلى رجل مخمور ؟ ..
— الشاب المخمور لا يقوى على شئ .. فما بالك
بشيخ؟! .

— وهل استعدت " الليسن " ؟ ..
- سأذهب إلى المرور غدا ..
وتذكرت خميس المناعى :
— لى صديق ضابط شرطة .. سيذهب معى ..

— هذا البلوشى ..

كنت قد قلبت النشرة الرسمية بدافع الفضول ، وبتصور
أنى قد أجد فيها ما يصلح للنشر . معظم النشرة أسماء بلوش
يطلب فهر بن تيمور نائب وزير الدفاع منحهم الجنسية
العمانية ..

قال لى الشيخ النبهانى :

- سيصبحون جنوداً فى الجيش العمانى .. لابد أن تكون جنسيتهم عمانية ..

استعدت الخبر الذى نشرته وكالة رويتر : كيف تختار لجنة من القوات المسلحة العمانية جنوداً من أبناء بلوشستان ، يجدون فى الانضمام إلى الجيش العمانى فرصة للفرار من أوضاعهم المادية القاسية . البلوش هم الطبقة الأدنى بين العمانيين . يعلوهم اللواتيا ، فالزنجاريون ، فالعمانيون العرب ..

قالت زويينة :

— لا تذهب .. سأتى لك بالليسن ..

ثم وهى تهز سبابتها :

— المشاة هنا لهم أولوية عبور الطريق ..

واتجهت ناحيتى بنظرة مستنكرة :

— كيف تقف لمن يريد عبور الطريق وأنت تجرى

كالصاروخ؟!

تساقطت التفاصيل الصغيرة والملاحظات . بدت لى

أجمل فتاة فى حياتى كلها . يأسرنى صوتها ، صوت طفل

ناعم ، وعيناي تتوهان فى عينيها ، ورائحتها الهادئة تملأ
أنفى . ربما تنبتهت إلى أنى - كأنما دون تعمد - أضع يدى
على يدها . أفكر فى أن أفعل شيئاً ، أى شئ . قاومت هاتفاً-
فى أن أحتضنها ، أضمها إلى صدرى ، وأقبلها .. كررت
القول : أحبك ، وإن ظل فمى مغلقاً ..

اتسعت فترات غيابى عن القاهرة . أضع سماعة
التليفون فأشعر أنى تركت - حالاً - أبى وأمى والولدين
والصغيرة عفاف . أهمل الأيام التى أعقبت قدومى إلى مسقط
. أتصور أن ذلك اليوم هو أول أيامى فى مسقط ..

ألح خاطر - لا أدرى كيف بدأ - فى أن أترك مها ،
ومصر ، وأحيا مع هذه الجميلة ، الناعمة ، أو أصحابها إلى
القاهرة ، لتحيا معى ..

حاولت أن أستعيد صورة مها ، فلم أوفق . بدت
الملامح غير واضحة ، وضبابية ..
هذه الجميلة هى دنيائى الحقيقية .

أفزعنى فى عينيهآ جمود دامع ، وفى فمها صرخة
تريد أن تنطلق :

– ماذا ؟ ..

– ناصر فى المستشفى ..

صرخت :

– ماذا ؟ ..

– ناصر .. فى المستشفى ..

– كيف ؟ ! ..

– حادثة سيارة فى الطريق إلى قريات ..

– هذا ما كنت أخشاه ! ..

بدا لى – فى الأيام الأخيرة – شخصا آخر غير الذى
أعرفه . نظراته زائغة ، وخطواته متعثرة ، واصفرار وجهه
يشى بالمرض . كان يحدثنى عن خوفه من الصعود إلى
الجبلى . يتوقع أن تظهر له المرأة الجنية ، فلا يدرى تصرفها

. أدركت من كلامه الذى بدل طبيعته المنطوية ، أنه سأل ،
وتلقى إجابات . تشابكت الإجابات بقدر تعدد إلقاء الأسئلة ،
أو السؤال الواحد . اختلقت الأرواح الشريرة والأشباح
والعفاريت . أضافت إلى خطورة ما يعانى به . يهمس بها جس
، ثم يعلو صوته بما يرى أنه أجدر بالتصديق ، ثم يعود إلى
وسيلة لم يكن قد اقتنع بها ..

فاضل بين شقق خالية فى روى ومطرح ودار سبت
والحمرية . غلبه الهم لرفض أبيه . إذا أردت مفارقة قريات
، فلن ننزل معك . وكنت أدرك حبه لأسرته . أبيه وأمه
وأخوته الصغار ..

وقفت فى الطرقة الطويلة ، تلفها ضبابية شفيفة .
ألصقت وجهى بالزجاج الفاصل بين الطرقة وحجرة الإنعاش
. ستة أسرة ، خلت من المرضى ، ماعدا سرير فى أقصى
الحجرة . بالكاد تبينت فيه " ناصر " ممدداً على ظهره ،
وضعت فوق أنفه كمامة أوكسجين ، وغرست فى جسمه
أسلاك ، وتدلّت زجاجة الجولوكوز من حامل المحاليل ..

حاولت أن ألوح له بيدي ، أو أبدى حركة يفطن لها ،
لكنه كان ممدداً فى السرير الأبيض . نظراته غائبة ، أو أنه
كان يتجه إلى السقف ..

قلت للطبيب ذى السحنة الأوروبية :

_ هل هناك أمل ؟ ..

قال فى إنجليزية هادئة ، باترة :

_ أدع له بالرحمة ! ..

قالت زويبة :

_ ما يفزعنى أن الأطباء بذلوا كل ما لديهم ..

قلت فى دهشة :

_ من قال ؟ ..

صمتت لحظة ، ثم قالت :

_ لو أننا فى زنجبار .. كنت صحبته إلى عين شمش

..

استعدت التسمية :

_ عين شمش ؟

– عين ماء بالقرب من المدينة .. تعالج كل الأمراض
، حتى المستعصية منها ..

– أعرف أن ناصر يعانى مطاردة أرواح شريرة ؟
– حتى الأرواح الشريرة يطردها الاغتسال فى العين
من داخل الإنسان ..

أضافت لنظرتى المستغربة :

– لا تصدقنى .. لكن أبى ظل يعالج فى عين زنجبار
.. وفى مسقط يتناوبه الأطباء ..

– أعرف شيخاً فى بهلا .. ربما ساعد على الشفاء

- هل يفجح شيخك فيما عجز عنه الأطباء؟! ..

– مجرد محاولة .. ربما تفيد ..

روت لى أن الشيخ فى إصبعه خاتم مطلسم يملك قوة
الصحة والمرضى والحياة والموت . يكشف عن المخبوء
بالنظر إلى السماء . يتأمل الزرقة والشمس والسحب والليل
والقمر والنجوم . تفتح الأبواب أمامه بمجرد أن يقرأ أسماء
أم موسى ..

فاجأنى النبهانى – حين سألته عن الشيخ – بأنه يعرفه

:

— هذا شيخ مبارك .. من يقرأ عليه أو يلمسه بأصابعه ، يشفى بإذن الله ..

رجح النبهانى أن تكون المرأة التى التقت بناصر فى طريق قريات من العالم السفلى . استهواها ناصر ، فظلت تطارده حتى يوافق - أو ترغمه - على أن ينتقل معها إلى حيث تعيش . قال الشيخ إن المرأة أثيرية ، طيف خيال ، لا تتجسد إلا لناصر . أحبته ، فسعت إلى إغوانه والسيطرة عليه ..

ثم وهو يستحثنى بإشارة من يده :

— اصحب ناصر إلى بهلا . بركات الشيخ مؤكدة ..

أضاف فى تأثر واضح :

— لم أكن أعرف ناصر التميمى قبل أن يزورنى ويطلب العمل فى الجريدة ..

وانتزع ابتسامة :

— أردت تشجيعه لأن الشبان لا يقبلون على العمل فى

الصحافة .. ثم أحببته لحبك له !

تحدث النبهانى عن أدعية الشيخ لدفع لدغات الثعابين والعقارب ، ولفك المربوطين والعاقات وعقد البنات ،

ولعلاج الأمراض التى عجز الأطباء عن مداواتها . قال إنه
يجيد تعبير الرؤيا وتفسير الأحلام ، ويطلع على أسرار
الطبيعة ، ويعرف فى حساب الكواكب والطاقع والنجوم ،
ويعلم الغائبات من الأمور ، ويخبر عن الأشياء قبل كونها ،
ويجيد تحويل القلوب ، وإحداث الشفاء والأذى ، ويشفى من
الأمراض المستعصية ، ويطرد الجن ، ويملك توائم وصيغاً
سحرية تطيل العمر ، وتطرد الأرواح الشريرة ، وتجلب
الحظ السعيد . وقال إن الشيخ عرف عنه علمه بجميع العلوم
بقدره الله : الطب والهيئة والتنجيم والكيميا والسيميا
والروحانى ، ومسميات أخرى لم أكن أعرفها ، ولا استمعت
إليها من قبل ..

حذر الرجل من أن الشيخ يطيعه الجن والشياطين ،
فهو يملك تقييد يدى الإنسان الذى يغضب عليه وقدميه ولسانه
. يشل حركته ، فلا يقوى على الكلام أو الحركة . ربما
أخرج الواقف أمامه من هيئته البشرية إلى هيئة حمار أو
كلب أو ماعز . لو أنه ردد - بسرعة - قراءات وتعاويذ
وطلاسم ، انسخط الواقف أمامه من فوره . صار جمادا- لا
حول له ولا قوة ..

غلب الفضول ما عداه تهيئى للسفر إلى بهلا ..
قال عبد العال :

— نصيحتى .. لا تسافر ..

وأنا أفتش فى وجهه عما يخفيه :

— لماذا ؟ ..

— هذه مدينة سحر .. قد تؤذى فى جسدك أو فى

نفسك ..

- يصحبنى أصدقاء عمانيون إلى شيخ له كرامات ..
وضغطت على كتفه :

— لن يظل ناصر مقعداً طيلة حياته ..

— هل نستبدل السحرة بالأطباء ؟ ..

- مجرد محاولة للإفادة من الطب النبوى ..

هز رأسه فى غير اقتناع ..

أدركت من ملامح الشيخ النهانى ما حدث ..

— ناصر ؟ ..

انترعت الحروف :

— هكذا .. بسرعة ..

أردفت فى تأثر :

– حتى جنازته لم أمش فيها ..

قال :

– المذهب الإباضى يقضى بأن يدفن الميت قبل أن

تمر صلاتان على وفاته ..

أغمضت عيني بالتأثر :

– لا أتصور أنى لن أرى ناصر بعد الآن .. لا

أتصور أنه لن يأتى ونخرج معا ..

بدا كل شئ حزينًا ، ومقبضًا . أحسست – ربما أكثر

من قبل – أنى وحيد . وحيد تمامًا . امتلأت بشعور الوحدة .

نظرت من النافذة المستديرة المجاورة لى ، والطائرة
تحاول الوقوف . واللمبة الحمراء - أسفل الجناح - تتلاحق
ومضاتها . يداخلنى شعور يتمازج فيه الرغبة فى الفضفضة
والإحساس بالذنب . وكان وجه زوينة مقيماً فى ذاكرتى ..
فاجأنى مرض أبى ..

ظلت رسائله على انتظامها ، رسالة كل أسبوع . حتى
الكلمات ظلت واضحة لم يداخلها اضطراب ، فلم أتوقع
مرضه ، ولا خطر فى بالى ..
قالت أمى :

– أعرف أن مسقط مدينة حارة .. المفروض أن تعود
ببشرة سمراء .. العكس ما حدث ..
قلت فى نبرة مهونة :
– نسيت أنى أحيا فى المكيفات ..

أحتزن المشهد وراء النافذة منذ طفولتى ، لكننى نفضت
رأسى لتصور أن سرب الطير يحلق فى سماء مسقط .
قلت وأنا أرنو - بتلقائية - عبر النافذة :
- المكيفات وليس البترول هى سر الحياة فى الخليج ..
فى البيت والعمل والسيارة .. فى كل شئ ..
ثم وأنا أتأمل الظلال تعلو واجهات البيوت :
- لا أتصور أنهم يقوون على الحياة بلا مكيفات ..
واستدرت إلى داخل الحجره :
- لو أنهم أفلحوا فى تكييف المناخ لفعلوا ..

ألفت أزيز إقلاع الطائرة وهبوطها . أطل من النافذة
الزجاجية المستديرة . تعلو الطائرة فوق الرمال . فاجأتنى -
فى المرة الأولى - مساحات الرمال . تتناثر خضرة وبيوت
متلاصقة ، ومتباعدة ، تصغر جميعها ، وتبهت ، حتى
تتلاشى ..

- أستاذ عبد العال ..

واتجهت إليه بنظرة متسانلة :

- إجازة أم عودة نهائية ؟

– إجازة قصيرة ..

واستدرك فى كلمات متباطئة :

- هى إجازة قبل العودة النهائية إلى مسقط ..

أضاف لنظرة الدهشة فى عيني :

– سأظل فى مسقط حتى يبلغنى العمانيون برأى آخر

..

ومط شفته السفلى فى هيئة المتحير :

– أول ت – أدركت أنه يقصد زوجته – فى خداع

الأولاد .. لم أعد بالنسبة لهم إلا حصاله ينفقون منها ..

ثم وهو يفرك يديه :

- نتحدث بالمجاملة عن الوطن الثانى ..

وداخل صوته نبرة حاسمة :

– الآن .. مسقط وطنى الأول ..

عصتني الكلمات . تشاغلتي بالنفاذ إلى داخل الدائرة

الجمركية ..

طال ترقيبى للنقرات على الباب الخارجى . أهملت

التعب ، وتشاغلتي بمراجعة مواد الجريدة . لو أنى أسلمت

جسمى إلى راحة النوم ، ربما لا تصلنى النقرات التى

أنتظرها . لم نعد ـ منذ وفاة ناصر ـ نلتقى خارج المكتب .
تدخل من الباب المفتوح ساعات النهار ، وأتوقع الطرقات
الخافتة فى الليل .

مضت الشمس فى دورتها من الشرق إلى الغرب ،
وبدا ليل سبتمبر لطيفاً ، وهبت نسائم خريفية منعشة ..
لم تعد الشمس مجرد أشعة ساخنة ، لكنها دافئة ، حانية
، ويسهل تحملها ..

ناوشنى السؤال : لو أنى تخليت عن مها ، وقدمت
زويبة إلى أبى وأمى زوجة لى ، ماذا يقولان ؟ هل يأخذ
القبول أو الرفض تصرفاً تغيب عنى ملامحه ؟
مها . زويبة . لا ميل ، ولا انحناءات فى الطريق التى
يعرفانها . زويبة حكايتى التى عشتها بمفردى فى مسقط ،
ومها حكايتى التى يعرفانها فى القاهرة . فكرت فى أن أحكى
لأمى . أنفض لها نفسى . أحدثها عن المخلوقة الساحرة التى
بدلت حياتى . توقعت القول : ماذا بعد ؟.. والمقارنة التى
لابد أن تطرح نفسها بين الفتاة التى أخطبها فى القاهرة ،
والفتاة التى أحببتها فى مسقط .

أزمعت أن أحتفظ بما فى داخلى ، فلا أبوح به . أنسى
_ أتناسى _ تمامًا ..

_ أين كنت ؟ ..

قالت للهفة فى كلماتى وعينى :

_ أنا لم أمت .. ما زلت حية ..

وقامت متكئة على المكتب :

_ وصل زاهر ليلة أمس .. لديه وجهة نظر تثبت

أحقيته فى الجنسية ..

داخلى قلق داريته بابتسامة مشفقة :

_ هل أتوقع أن يستعيد جنسيته هذه المرة ؟ ..

_ لنا أقارب أفادوا من القانون واستعادوا الجنسية ..

بدأت الطرقات أسرع وأقوى مما اعتدت .. هل هى ؟ ..

حدست أنها تدارى انفعالها بابتسامة مفتعلة :

_ هل أعددت حقائبك ..

_ لن تحتاج إلى أكثر من دقائق ..

_ وأوراقك .. ومستحقاتك ؟ ..

_ أنهيت كل شئ ..

قالت فى انفعالها :

—متى تسافر ..

— طائرة العاشرة صباحاً .. صباح الاثنين ..

— ليس موعد ورديتى .. لكننى سأكون فى وداعك ..

قاومت ارتباكى :

— لا داعى .. لا أحب لحظات الوداع ..

تعانقت راحتانا ..

فاجأتنى - فى اللحظة التالية - بما حدث ..

شبت على أطراف أصابعها . طوقت عنقى بساعديها .

أحنيت رأسى . ضغطت بشفتيها على مقدمة الرأس . هبطت

إلى الجبهة والعينين والأنف والذقن . لامست شفتى - قبل

أن أتنبه - بقبلة خفيفة . لم يكن فى بالى أنى أفعل هذا . لم

يكن فى بالى أنها تفعله . هل كنتم السدادة على القمقم حتى

اللحظات الأخيرة ؟.

غاب ما يجب أن أفعله فى الارتباك الذى شملنى .

قبلتنى ثانية ، وأودعت عينيها نظرة استجابة . ملت عليها .

قبلتها . احتوت شفتاى فمها الوردى الرقيق . أحاطتنى

بساعديها . ثم عادت برأسها كأنها تتأملنى . قرأت فى عينيها
حناناً كنت فى حاجة إليه ..

حدث ما حدث فى ومضة ، فى لحظة باهرة . لم أعد
نفسى لها ، ولا صورتها ..

أدركت أنها تبادلنى نفس مشاعرى ، وإن لم تبح .
تحبنى مثلما أحبها ، تحبنى أكثر مما تظهر ، تجيد إخفاء
عواطفها ..

ـ قبلتك لأنى كنت أريد ذلك ..

ولونت صوتها :

ـ لكن من حق زوجى أن يجدنى كما خلقتى الله ..

ـ زوجك؟! ..

أومات :

ـ زاهر .. لن يعود إلى زنجبار ..

ـ حصل على الجنسية ؟ ..

ـ لا .. لكنه سيعمل هنا .. وينتظر ..

وأنا أغالب الارتباك :

ـ كان هذا هو اقتراحك ..

ـ لم يوافق عليه ..

– الآن .. وافق ..

همست بالذهول :

– تتزوجينى ؟

تأملتنى بنظرة مستفهمة :

– هل ستطيل إقامتك فى مسقط؟..

وربتت ظهر يدى بأطراف أصابعها :

– أقصد .. هل ستنتقل حياتك إلى هنا؟..

– تنتهى إعارتى – كما تعلمين – هذا الشهر ..

وأسلمت نفسى لشروود :

– كان مقدرًا أن نعرف بعضنا ..

لم تحاول إخفاء استيائها :

– نعرف بعضنا؟!

– يجب أحدنا الآخر .. ثم أجبرتنا الظروف على أن

نفترق ..

اقتحمنى يقين أننا – حين يمضى كل منا فى اتجاه

مغاير – سنفترق إلى الأبد . لن يرى أحدنا الآخر ثانية .

يكتفى باجترار الملامح والكلمات والتصرفات . تظل فى

ذاكرتى - أثق - مهما تمضى الأعوام . هل أظل فى
ذاكرتها ؟..

- ولماذا نفترق ؟..

- أنت لن تحيا فى مسقط طول عمرك .. وأنا لا
أستطيع أن أفارق مسقط ..

وعكست نظرتها ما تعانيه من قلق :

- معادلة صعبة كما ترى !

هتفت بعفوية :

- سنحيا معا- فى القاهرة ..

- لا أستطيع أن أفارق مسقط ..

- هذه الصخور والـ ...

قاطعتنى :

- أحب هذه الصخور .. وأحب الجبال ..

هزرت رأسى فى عدم اقتناع :

- لكننى أحبك .. وأنت تحبيننى ..

وهى تدير عينيها :

- وزاهر أيضا- يحببنى !..

- فإذا أصر على عودتك إلى زنجبار ؟

— ستكون عودة إلى الوطن الذى أحبه ..

— وعمان ؟

— لم أحاول المقارنة .. لكن زنجبار طفولتى التى لا

أنساها ..

هل تنتهى كل الأشياء الجميلة ، فهى ذكرى لا أملك إلا
استعادتها ؟ هل حان الفراق ؟ وهل أرادت أن تجعل للحظات
الوداع شعائر لا أنساها ؟..

كانت نظراتها تقول : لن نلتقى بعد اليوم . لم تقل ذلك
بلسانها ، ولا همست به ، لكن ذلك ما قالته عيناها بالفعل ..

بدا كل شىء من حولى يتصدع وينهار . تبين نتائج لا
أتوقعها ، ولا أحبها . هل تودعنى ؟ هل أودعها ؟ هل أفقد
زوينة ؟.. أعود إلى القاهرة ، ويظل زاهر فى مسقط ، فلا
نلتقى ثانية ؟ .. مجرد التفكير فى أننا نفترق يصيبنى بارتباك
. كيف تبدو الحياة دون أن ألتقى بها ، أكلمها ، أستمع إليها ،
أتأمل ملامحها الطفولية المنمنمة ؟

شعور غامض تخلق فى داخلى ، يشى بأن شيئًا ما قد
تكسر ، أو ذاب ، انتهى . أثق أنى أفقد زوينة . أنى لن أراها
ثانية . لن أترقب الطرقات الخافتة ، الجلسة المتربعة على

الكنبة المواجهة للمكتب ، أحاديثنا فيما يفد إلى الخاطر ،
تحكى وتحكى ، تشاغلها بإعادة ترتيب ما تعمدت إفساده ،
قولها فى قاعة المطار : لماذا تقف هكذا ؟ ، قولها أمام باب
البيت : هل عندك وعاء كبير ؟ ، تأملى لها للمرة الأولى ،
الرواية القاسية لما جرى فى زنجبار ، تبدل حركاتها
وتصرفاتها وإيماءاتها ، وقفاتها تحت قلعتى الميرانى
والجلالى حين أرنو إليها وأنا أتجه إلى مكتب الإعلام ،
المناقشات الهامسة فى كافيتريا الفندق ، طريقة ارتشافها
للشاي ، تحور الوجه الطفولى بالغضب ، تعثرها فى وقفاتها
على السلم ، سؤالها تحت المصعد الزجاجى بفندق مسقط
انتر كونتيننتال : ما أخبار القلب ؟..

أقلعت الطائرة ..
فككت الحزام من حول وسطى ، وتهيأت لأخذ نسخة
من الصحف المصفوفة بالقرب من الباب الأمامى ..
بدت مسقط فى صعود الطائرة مناطق متناثرة بين
الجبال والصحراء والبحر والزراعات القليلة . ميناء قابوس
، وكورنيش مطرح ، وألق الأمواج ، والجبال المتلاصقة ،

والقلاع ، والطوابى ، ومساحات الخضرة المحدودة تضاءلت
- بارتفاع الطائرة - وشحبت ، ثم لم يعد إلا الفراغ المحيط
وصوت المحركات ، والطائرة تخترق أفقا من السحاب
الأبيض ، المتكاثف ..

محمد جبريل - مصر الجديدة - يوليو ١٩٩١ -

أغسطس ٣٩٩١

مؤلفات محمد جبريل

- ١ - تلك اللحظة (مجموعة قصصية) ٠٧٩١ - نفذ
- ٢ - الأسوار (رواية) ٣٧٩١ هيئة الكتاب - الطبعة الثانية ٩٩٩١
مكتبة مصر
- ٣ - مصر فى قصص كتابها المعاصرين (دراسة) الكتاب الحائز
على جائزة الدولة - ٣٧٩١ هيئة الكتاب
- ٤ - انعكاسات الأيام العصيبة (مجموعة قصصية) ١٨٩١ مكتبة
مصر - ترجمت بعض قصصها إلى الفرنسية
- ٥ - إمام آخر الزمان (رواية) الطبعة الأولى ٤٨٩١ مكتبة مصر -
الطبعة الثانية ٩٩٩١ دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية
- ٦ - مصر .. من يريد لها بسوء (مقالات) ٦٨٩١ دار الحرية
- ٧ - هل (مجموعة قصصية) ٧٨٩١ هيئة الكتاب - ترجمت بعض
قصصها إلى الإنجليزية والماليزية
- ٨ - من أوراق أبى الطيب المتنبى (رواية) الطبعة الأولى ٨٨٩١
هيئة الكتاب - الطبعة الثانية ٥٩٩١ مكتبة مصر ٩
- قاضى البهار ينزل البحر (رواية) ٩٨٩١ هيئة الكتاب
- ٠١ - الصهبة (رواية) ٠٩٩١ هيئة الكتاب
- ١١ - قلعة الجبل (رواية) الطبعة الأولى ١٩٩١ روايات الهلال -
الطبعة الثانية ٠٠٠٢ - مشروع مكتبة الأسرة

- ٢١ - النظر إلى أسفل (رواية) ٢٩٩١ - هيئة الكتاب
- ٣١ - الخليج (رواية) ٢٩٩١ هيئة الكتاب
- ٤١ - نجيب محفوظ .. صداقة جيلين (دراسة) ٢٩٩١ هيئة قصور الثقافة ٥١
- اعترافات سيد القرية (رواية) ٤٩٩١ روايات الهلال
- ٦١ - السحار .. رحلة إلى السيرة النبوية (دراسة) ٥٩٩١ مكتبة مصر
- ٧١ - آباء الستينيات .. جيل لجنة النشر للجامعيين (دراسة) ٥٩٩١ مكتبة مصر
- ٨١ - قراءة فى شخصيات مصرية (مقالات) ٥٩٩١ هيئة قصور الثقافة
- ٩١ - زهرة الصباح (رواية) ٥٩٩١ هيئة الكتاب
- ٠٢ - الشاطئ الآخر (رواية) ٦٩٩١ مكتبة مصر - الطبعة الثانية ١٠٠٢ - مشروع مكتبة الأسرة - ترجمت إلى الإنجليزية
- ١٢ - حكايات وهوامش من حياة المبتلى (مجموعة قصصية) ٦٩٩١ هيئة قصور الثقافة ٢٢ -
- سوق العيد (مجموعة قصصية) ٧٩٩١ هيئة الكتاب
- ٣٢ - انفراجة الباب (مجموعة قصصية) ٧٩٩١ هيئة الكتاب - ترجمت بعض قصصها إلى الماليزية
- ٤٢ - أبو العباس - رباعية بحرى (رواية) ٧٩٩١ مكتبة مصر
- ٥٢ - ياقوت العرش - رباعية بحرى (رواية) ٧٩٩١ مكتبة مصر

- ٦٢ - البوصيرى - رباعية بحرى (رواية) ٨٩٩١ مكتبة مصر
- ٧٢ - على تمرار - رباعية بحرى (رواية) ٨٩٩١ مكتبة مصر
- ٨٢ - مصر المكان (دراسة فى القصة والرواية) الطبعة الأولى
٨٩٩١ هيئة قصور الثقافة - الطبعة الثانية ٢٠٠٢ - المجلس
الأعلى للثقافة ٩٢
- حكايات عن جزيرة فاروس (سيرة ذاتية) ٨٩٩١ دار الوفاء
لدى الطباعة بالإسكندرية
- ٠٣ - الحياة ثانية (رواية تسجيلية) ٩٩٩١ - دار الوفاء لنديا
الطباعة بالإسكندرية ١٣
- حارة اليهود (مختارات) ٩٩٩١ - هيئة قصور الثقافة
- ٢٣ - رسالة السهم الذى لا يخطئ (مجموعة قصصية) ٢٠٠٢ -
مكتبة مصر
- المينا الشرقية (رواية) ٢٠٠٢ - مركز الحضارة العربية -
الطبعة الثانية ٢٠٠٢ - مشروع مكتبة الأسرة
- ٤٣ - بوح الأسرار (رواية) ٢٠٠٢ - روايات الهلال
- ٥٣ - مد الموج (رواية) ٢٠٠٢ - مركز الحضارة العربية
- ٦٣ - البطل فى الوجدان الشعبى (دراسة) ٢٠٠٢ - هيئة قصور
الثقافة
- ٧٣ - نجم وحيد فى الأفق (رواية) ١٠٠٢ - مكتبة مصر
- ٨٣ - زمان الوصل (رواية) ٢٠٠٢ - مكتبة مصر

٩٣ - موت قارع الأجراس (مجموعة قصصية) ٢٠٠٢ - هيئة
قصور الثقافة

٠٤ - ما ذكره رواية الأخبار عن سيرة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله (
رواية) ٣٠٠٢ - روايات الهلال ١٤ -
حكايات الفصول الأربعة (رواية) ٤٠٠٢ - دار البستاني

كتب عن المؤلف

١ - العالم القصصى عند محمد جبريل - مجموعة باحثين - مكتب منيرفا
بالزقازيق ٢٨٩١

٢ - دراسات فى أدب محمد جبريل - مجموعة باحثين - مكتب منيرفا
بالزقازيق ٤٨٩١

٣ - البطل المطارد فى روايات محمد جبريل - حسين على محمد (دكتور
(- دار الوفاء بالإسكندرية ٩٩٩١

٤ - فسيفساء نقدية - تأملات فى العالم الروائى لمحمد جبريل - ماهر
شفيق فريد (دكتور) - دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية ٩٩٩١

٥ - محمد جبريل .. موال سكندرى - فريد معوض وعدد من الأدباء
والنقاد - كتاب سمول ٩٩٩١

٦ - استلهام التراث فى روايات محمد جبريل - سعيد الطواب (دكتور) -
دار السندباد - ٩٩٩١ .

٧ - فلسفة الحياة والموت فى رواية محمد جبريل " الحياة ثانية " - نعيمة
فرطاس - أصوات معاصرة ١٠٠٢

جربة القصة القصيرة فى أدب محمد جبريل - حسين على محمد (دكتور)
١٠٠٢ كلية اللغة العربية بالمنصورة

٩ - روايتى من بحرى - حسنى سيد لبيب - هيئة قصور الثقافة -
١٠٠٢

١٠ - محمد جبريل / مصر التى فى خاطره - حسن حامد - أصوات
معاصرة - ٢٠٠٢